*

جميل سلطان



قصة حياته ودراسة أشعاره

المطبعة الهاشمية بدمشق



قصة حياته ودراسة أشعاره

بقلم

استاذ الأدب العربي والبلاغة

جميل سلطان

ليسانسية في الحقوق

ومجاز في الآداب

طبع بنفقة

المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

المطبعة الهاشمية بدمشق

*

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم

تمهيد

ما عرفت العصور الأدبية العالية شعراء كجرير والفرزدق والأخطل ، ثار بينهم ما ثار من هجاء شغلوا به الزمن الذي عاشوا فيه ، والعصور التي أعقبته ، ثم لم ينته الناس من الحديث عنهم إلى غاية يرضى بها المتعصبون ، فلقد كان هؤلاء الأعلام زعماء يمثلون نواحي مختلفة من الحياة الأدبية فتفرق الناس في الميل إليهم طرائق قددا .

ولئن تعصب الناس من قبل في الحديث عن هؤلاء ، ولئن صح عدم اتفاق العلماء في تفضيل واحد على آخر ، فلا يصح ولا يجوز ، أن يأخذ التعصب من بعض الباحثين مأخذه في هذا العصر الذي استفاضت فيه مذاهب النقد والحرية والبحث فتظهر آثار التعصب فيما يكتب .

ولقد يهون الأمر لو تحدث المتحدث عن قلبه وهواه ولم يتحدث عن عقله وتفكيره ، لأن نوازع النفس وخلجات الفؤاد لا يمكن أن تهدأ وهي هي مبعث الحب والتعصب . وأما أحكام العقل ومقاييس الفكر الذي لا يتأثر بعاطفة فهي التي يستبين بها المرء الحقيقة الواقعية على أوضح وجه وأبين طريقة ، وهي بعد ذلك مبعث الإعجاب والتقدير .

وعلى ألا نتعصب لفريق فيما سنعرض له ، ندرس جريراً أحد شعرائنا الخالدين على سجيس الليالي والأيام

*

الرجل

المنهاج

مولده ، نشأته ، أسرته ، بيئته ، خصومته ، رحلاته ، اتصاله بالخلفاء والأمراء والشعراء ، طبيعته ، أثر هجائه في الناس ، الشعراء الذين هاجوه ، بخله ، أساطير من حوله ، ادعاؤه ، أحكامه على خصومه ، آراء العلماء فيه وفي خصميه ، مشاركته في الشؤون العامة ، ميله السياسي ، دينه وتقواه .

أهم مصادر البحث :

ديوان جرير ، الأغاني ، العمدة ، الصناعتان ، الجمهرة ، أعلام الكلام ، نهاية الأرب ، خزانة الأدب ، النقائض ، الوفيات وغيرها .

*

*

الرجل

يروي

قصة حياة

*

*

قصة حياته

تقسم الحياة في هذا الكون للمولود ، فينسب إلى أهله الذين يدرج من عشهم ، وينشأ في بيئتهم ، وما يزال يعزى الى تلك البيئة التي منها درج حتى يقيم لنفسه فخاراً ومجداً فينسب سواه إليه .

وكذلك كان شأن جد جرير فأنت إذا سمعت (الخطفى) أو قرأته قيل لك إنه (جد جرير) ، فكأن هذا الخطفى نكرة يتعرف بحفيده ، وما هو بنكرة على الوجه الأصح ، لأن الرجل كان شاعراً مجيداً ورجّازاً قوياً .

وقد غلب عليه لقب الخطفى لقوله :

يرفعن لليل إذا ما أسدفا

أَعناق جنان وهاماً رُجّفا

وعنقاً بعد الكلال خيطفى (ويروى خطفى)

واسم الخطفى عوف وقيل حُذيفة بن بدر من يربوع ثم من تميم ثم من مضر بن نزار .

أَما ابنه عطية (أو عطاء) فيظهر أنه كان دون ذلك ، كان معدما لا خطر له ، ولكن معرفة المعارف في هذه الأسرة هو

جرير بن عطية بن الخطفى وإنما أسموه جريراً لقصة أشبه بالخيال منها بالحقيقة ، ومن يدري فلعلها مما اختلق الرواة القصاصون ، وقديماً اختلقوا مالم يكن ، حينما رأوا الناس ولوعين بكل غريب متطلعين لكل طريف ، فقد زعم أبو عبيدة ولم يكن ثقة «أن أمه رأت وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود ، فلما سقط منها جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه ، حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعة ، فأولت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاماً شاعراً ذا شر وشدة شكيمة وبلاء على الناس . فلما ولدته سمته جريراً باسم الحبل الذي رأت أنه خرج منها » .

ولسوف ترى أن هذه الأوصاف التي وصف بها الجنين لا تفرق في شيء عما وصف به شاعرنا حين اشتد عزمه وقويت شوكته ، ولعل هذا التعليل للاسم كان تعليلاً للشيء بعد وقوعه .

وهذا الجنين لم يستقر في مخبئه المدة المقدرة له وإنما ظل سبعة أشهر ، وتعجّل إلى الدنيا وكان في ذلك معرة له استعان بها خصمه الفرزدق عليه .

وأرسل صوته الأول في هذه الحياة الدنيا زمن خلافة عثمان فكأنما جاء والشر جنين سابح ، أو طفل راضع ، وكلما شب

شبت معه الأحداث ، وكلما ترعرع كانت تبدو عليه أمارات الشكاسة والعسر ، وكانت أمه ترقصه وتذكر رؤياها فتقول على ما زعم بعض الرواة :

قصصت رؤياي على ذاك الرجل فقال لي قولاً وليت لم يقل
لتلدِنّ عضلةً[1] من العُضل ذا منطق جزل إذا قال فصل
مثل الحسام العضب ما مس قصل[2] يعدل ذا الميل ولما يعتدل

وإذا صح هذا تبينت بيئة جرير الشاعرة من جهة أبويه .

وولدت أمه حِقّةُ بنت مُعيْد الكلبية ستة بنين وهم قيس وعمرو وجرير وأبو الورد وعمران وحكيم وكلهم أبناء عطية .

ولعل له إخوة أكثر من ذلك ، ولعل قيساً وعمر ولدان آخران لعطية أغفل ذكرهما الذاكرون .

وما يهمنا أن يكون له إخوة ثلاثة أو أربعة أو عشرون ما دامت البيئة التي عاشوا فيها ليست بيئة تناصر وتحاب وألفة ، وإنما كانت حياتهم تقوم على التحاسد الذي يدفع مكارم الأخلاق . وما ابتلي جمع بهذا الداء العياء إلا أفسد سرائرهم ، وشتت شملهم ،

---

(١) العُضْلة = الداهية . (٢) قصل = قطع .

وزرع فيهم الضغينة والشحناء ، ثم أذهب ريحهم فكان لم يغنوا بالأمس .

والتحاسد شر في المجتمع الكبير ، وشر في المجتمع الصغير فإن نشأ الطفل عليه ، لم ينعم بلذة الحب ، ولم يعرف قيمة الاجتماع ، وفي ذلك نقول عن إخوة جرير ، ونشير إلى هذه الغراس الأولى التي جعلت الشاعر منذ نعومة أظفاره ينظر إلى الناس نظر الحذر والريبة ، وكيف يأمنهم وقد رأى الحسد في وجه أخيه .

قيل إن إبلاً لجرير شردت فشمت به أبو الورد أخوه فقال :

أبا الورد أبقى الله منها بقية كفت كل لوّام خذول وحاسد

وأما عمرو فكان يقارضه الشعر فقال له يعاتبه :

أعمرو وقد كرهت عتاب عمروٍ وقد كثر المعاتب والذنوب
وقد صدّعتُ صخرة من رماكم وقد يرمى بي الحجر الصليب
وقد قطع الحديد فلا تماروا فرند لا يفل ولا يذوب

ويظهر أن جريراً كان معيّلا يقوم بأمر ثمانية وثمانين نفساً . فلقد خاطب هشام بن عبد الملك فقال له :

ماذا ترى في عيال قد برِمْت بهم لم أُحص عدتهم الا بعدّاد
كانوا ثمانين (1) أو زادوا ثمانيةً لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

---

(1) (أو) بمعنى (بل) أو بمعنى (الواو) العاطفة .

وكان له من أولئك ابن بكر يدعى حزرة ، وبه كان يكنى وله من الذكور غير حزرة سبعة ، ومن الإناث ابنتان .

نعرف من هؤلاء بكره حزرة ، ونعرف بلال بن جرير ، فقد كان شاعراً متصلاً بأئمة الأدب في عصره ، وقد نقل عنه الأصمعي وغيره من كبار الرواة .

وجاء من نسله عمارة بن عقيل بن بُلال ، وكان عمارة وعقيل يحدثان عن جرير . ولعمارة يرجع الفضل بجمع ديوان شاعرنا . وقد نقل عنهما الرواة كمحمد بن عبد الله بن آدم بن جشم وشعيب بن صخر .

ونعرف منهم سوادة الذي مات بالشام زمن الوليد ، وكان جرير به معجباً فجزع عليه ورثاه أَشجى الرثاء وأَحزنه .

ونعرف منهم عكرمة بن جرير ، وقد رويت عنه أَحكام أَدبية سمعها من أَبيه ، أَو سأل أَباه عنها ، وكان شاعراً يلاحي الناس ، ويهاجي الشعراء ، كأَخيه نوح بن جرير .

ومنهم حجناء بن جرير ، وقد كان في أَسئلته الأَدبية شبه عكرمة ونوح .

وفي بعض النصوص أن حجناء بن نوح بن جرير كان يحدث عن جرير ، فربما كان حجناء ليس ابناً لشاعرنا ، وإنما كان حفيده ، أو لعل هناك رجلين بهذا الاسم أحدهما ابن جرير والثاني حفيده .

وفي بعض النصوص أيضاً أن عمارة هو ابن بلال بن جرير ، وهو الذي يرجع إليه الفضل في رواية شعر جده .

ولم يقع إلينا نص واضح فيمن بقي ، وإن كنا قد عثرنا على أسماء نشك كثيراً أن تكون صحيحة النسب إليه وإذا لم يطمئن القلب فلا داعي لتقريرها على أنا نعرف يقيناً إحدى ابنتيه (الربداء) فقد تزوجت من ابن عمها كسيب بن عمران ابن عطاء بن الخطفى فانجبت مسحل بن كسيب . ولقد حدث عن جده جرير .

وأما زوجته أم بنيه فهي خالدة بنت سعد وكان بها معجباً ولها محباً ، ولقد ماتت في حياته فجزع عليها أشد الجزع ورثاها بما ينبئ عن لوعة وحرقة كما التاع لفقد ابنه سوادة .

وأما أمه فكانت أم قيس حقة بنت معيد كما مر ، وروى صاحب الأغاني أنها أم قيس بنت سعد من يربوع .

وأما جدته أم عطية فكانت النوار بنت يزيد من يربوع أيضاً .

***

وهذا ما حققناه من أسرة جرير وقد لاحظت مما مر بك أثناء الحديث عن أبنائه وأحفاده أن منهم من كان يعد في الأدباء والشعراء ، ويعني بالحوادث الأدبية التي تتصل بجرير ، وكانوا جميعاً يتحدثون عن أخباره الواقعية والفنية ، ومن هنا نعلم اتصالهم بالحياة الأدبية العامة وشيوع الفكرة الأدبية فيهم ، فلم يكن أفراد هذه الأسرة ليقتصروا على تحديث كبار الرواة بأخبار جدهم ، وإنما كانوا ينظرون إلى الوجهة الفنية الشعرية فيسألون أباهم ثم هم يخبرون الناس بما كانوا يعلمون ، وإذا ضممت إلى هذا ما تحدث به الأصمعي وغيره من الرواة عنهم احتجت إلى صحائف تجاوز المئين عدداً .

*

فساد بيئته

أما فساد بيئته التي درج منها فلا تقف عند الحد الذي أشرنا إليه حين ذكرنا لك ما كان بينه وبين أخويه بل أن ذلك الفساد يتجاوز الأبناء إلى الآباء ، ومن شر ما في الخلق أن يتخطى المرء حدود قدسية الأب ؛ ولقد كان جرير في أول عهده من أعق الناس بأبيه ، ولعل عقوقه كان لما رأى عليه أباه من الضعة والبخل حتى أصبح يعير به وكان يهزأ منه ويسخر ، فخرج ابنه بلال من أعق الناس بأبيه :

استعار جرير من أبيه فحلاً يطرقه في إبله فلما استغنى عنه جاءه أبوه في بتٍ خَلَق يسترده ، فدفعه إليه وقال : يا أبتِ هذا ترد إلى عطية تعتل !

يعرض بقول الفرزدق فيه :

ليس الكرام بناحليك أباهمُ   حتى ترد إلى عطية تعتل

وراجع جريرٌ ابنه بلالاً الكلام يوماً فقال له بلال :

« الكاذب مني ومنك ... أمه »

فأقبلت أُم بلال على ابنها وقالت له : يا عدو الله أتقول هـذا لأبيك فقال جرير : دعيه . . . فوالله لـكأني أسمعها مني وأنا أقولها لأبي .

ولـكن جريراً لم يبق على عقوقه حينما تقدمت به الأيام بل عرف لأبيه حقه حتى عجب أبو عمرو بن العلاء من انحطـاط جرير لرجل دميم أسود وإجلاله له ، ثم زال عجبه حين عرف أن عطية أبوه .

في هذه البيئة نشأ جرير ، وفي قرية «حجر» من قرى اليمامة بالجنوب الشرقي من نجد[1] ، ترعرع وكبر ، وبين أهل فقراء يقولون الشعر ، ويهاجون به شعراء قومهم ، ثقف الكلام وتعلم ، وكان شأن أطفال البادية ، يغدو بغنمات أبيه إلى المرعى ويروح ، وربما ذهب بماله وإبله التي كان يجود عليه بها جده الخطفى .

ولـكن بطيئاً ما ولدت للخطفى صبية فرجع بما أعطى ، فعاتبه جرير ليست أول ما قال كما زعم الزاعمون .

أما أول قول له يعتدُّ به فـكان رجزاً ، قاله في غسان السليطي

---

(١) قيل إنها الرياض عاصمة نجد الآن

من أبناء عمومته ، سمعه يهجو قومه ، والناس من حوله عنق واحد ، فهاجت نفس جرير برجز فيه فحش كثير .

وشاع في قومه الطرب اعتزازاً به ، وشرع يذود عن قومه ، ويدفع غسان حتى ظهر أمره ، وسار شعره كل مسير .

ومن هذه الشرارة الصغرى توقدت نيران التهاجي بينه وبين الشعراء ، وزاد في هذه النيران أن الأمراء والملوك كانوا يعملون على إيقادها ، تفريقاً للكلمة ، وتأييداً للمُلك ، واصطناعاً للشعراء كما سترى .



الخصومة الكبرى

وتهافت الشعراء على جرير تهافت الفراش على النار ، كلٌّ يعين صاحبه فيهوي معه ، ويكون شأنه شأن المتملق بالغريق فيغرقان معاً .

وكان فيهم من يحب أن يتعلق بأسباب جرير طمعاً في الخلود بذكراه ، وفي الشهرة عن طريقه ، كعمر بن لجأ .

وكان فيهم من أُغري وحُرِّض على الهجاء كسراقة بن مرداس البارقي ، حمله بشر بن مروان على هجاء جرير لا لشيءٍ ، إلا لينعم بتهاجيهما ، كمن يوقد النار ليرى كيف تلتهم المنازل فيلذه المشهد .

وطفا مِنْ كل اولئك الغرقى شاعران كبيران هما الفرزدق والأخطل ؛ فأما الفرزدق فقد أعان البعيث الذي أعان غسان السليطي ؛ وكان البعيث من بني مجاشع ، وهم قوم الفرزدق من تميم ، وقد ظهر عليه جرير وسب المحصنات من آل مجاشع ، ففزعن إلى الفرزدق يلمنه على تقييد نفسه بالقيد ، واشتغاله بحفظ القرآن دون الدفاع عن المحارم .

وثار الفرزدق ، فأرسل في جرير أولى أهاجيه ، وامتدت النقائض بين الرجلين ، وتحول جرير عن البعيث المنهزم ؛ إلى

الفرزدق المقدم ، وبقيا كذلك ردحا من الزمن ، والفرزدق أسيَر شعراً ، يتناقل أهل البصرة عنه شعره ، فيكثر الرواة والعلماء من حوله ، وأما جرير ففي اليمامة مقيم ·

ثم قدم البصرة ، وقد غبر على المهاجاة عشر سنين ، فرأى الناس من يربوع يتطلعون إليه ، وهم الذين استقدموه ، فأقام في المربد سبع سنين ، أو أكثر ، لا همّ له إلا أن يسب من سب قومه ، وإلا أن يشتم من شتمهم ·

وفي هذه المدة اتصل بالأمراء كبشر بن مروان والحجاج ثم اتصل بالخلفاء بعد حين ·

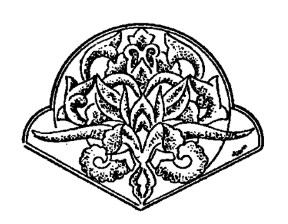
وأما الأخطل فقد كان يتنور هذه النار ، وهو في الجزيرة وما بين النهرين ، ولذّ له أن يعلم من أمر جرير والفرزدق ما يفضل أحدهما على الآخر ، فبعث ابنه مالكاً ليجيئه بالخبر اليقين ·

وكان من حكم الأخطل تفضيل جرير على الفرزدق إذ قال : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر · إلا أن محمد ابن عمير بن عطارد رشاه زقاق خمر وكساه حلة ، ففضل في شعر له الفرزدق على صاحبه ·

فاستعر بينهما الجدال ، وكان الأخطل في غُنية عن هذا لأنه قد أسن وشاخ .

وبلغ الشـائرون على جرير ثمانين من شعراء الزمان ، فأخملهم واحداً واحداً .

وظل جرير والفرزدق والأخطل يتصاولون أمداً طويلاً .



*

ضربه في الأرض

ضاقت آفاق البادية بجرير مذ كان شابًا ، وقديمًا كانت تضيق الآفاق المحدودة بالعباقرة ، ورأى هو وقومه ، أن بقاءه في اليمامة لن يوصله إلى ما يحب من شهرة ومال ، وأكثر ما يكلف الشاعر فبهذين الأمرين .

وإنه لمن العسر أن تحدد الأوقات التي كان الشاعر يغادر فيها موطنه ليفد على الأمراء والخلفاء ، وإنه لعسر جداً أن تساير حياة الشاعر ، والكتب التي بين أيدينا على ما فيها من غنى ، قاصرة عن تأدية كل ماتريد لما فيها من تداخل وتفكك ، وتقديم وتأخير ، وتزيد ونقص ، كل ذلك في غير موضعه ، وما على الباحث إلا أن ينسق هذه الأخبار تنسيقاً تقريبياً .

وأنت إذا شئت أن تحقق وفادات الشاعر بدأت بوفادته وهو شاب على يزيد بن معاوية .

ولم يكن له حينئذ من الشهرة ما استطار له فيما بعد ، وقد استوذن له على يزيد في جملة الشعراء ، فخرج الحاجب ، وهو ينكره ،

يقول : إن أمير المؤمنين لا يأذن لشاعر لا يعرفه ، ولا يسمع بشعره ، وما سمع لك بشيء فيأذن لك على بصيرة .

فقال جرير قل لأمير المؤمنين أنا القائل :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى سريع إذا لم أرض داري انتقاليا

جريء الجنان لا أهاب من الردى إذا ماجعلت السيف قبض بنانيا

وليس لسيفي في العظام بقية وللسيف أشوى وقعة من لسانيا

وكانت هذه الأبيات من أوائل شعره وقد قالها لجده وهي ليست أول ما قال - كما زعم بعض من أرخوا له - .

ودخل الحاجب بها إلى يزيد .

وكان يزيد قد عاتب أباه بهذه الأبيات وسواها من هذه لقصيدة وأرسلها إلى معاوية ، وكان معاوية يظن أنها لابنه لأنها لم تكن ذائعة كثيراً .

فلما سمع يزيد هذه الأبيات من الحاجب ، أذن لجرير أدخله واستنشده ، وأخذ جرير أول جائزة من الخلفاء وقال له يزيد : مد فارق أبي الدنيا وما يظن أبياتك التي توسلت بها إليّ ، إلا لي .

وكان ذلك على التقريب سنة ثلاث وستين للهجرة [1] وكان عُمر جرير نحو ثلاث وثلاثين سنة .

وثارت الفتنة بين آل مروان وآل الزبير .

فلما كان عهد عبد الملك سنة خمس وستين وفد جرير على الحجاج بالعراق ، ووفد على بشر بن مروان وكان قد استفحل أمره ، وطار صيته بين المشرق والمغرب .

ونحب أن نقرر أن وفادته على الحجاج كانت قبل وفادته على ملوك بني مروان ، ومن هنا تجد النحلة ظاهرة في الحديث الطويل الذي أورده صاحب الأغاني عما جرى بين الحجاج وجرير [2] إذ أخذ هذا يذكر له الشعراء الذين هاجوه واحداً واحداً ، وفيهم

---

(١) لأن يزيد توفي سنة أربع وستين للهجرة بعد أن حكم ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، وقد توسطنا الأمر فجعلنا مقدم جرير عليه في تلك السنة لأنا لم نعثر عَلَى مقدم آخر له عَلَى يزيد ، وكان الشاعر عَلَى الأغلب يفد في كل عام عَلَى الخليفة مرة وجعلنا ولادة جرير سنة ٣٠

(٢) قيل إن جريراً قدم مادحاً عَلَى الحكم بن أيوب وهو خليفة للحجاج فاستنطقه فأعجبه ظرفه وشعره فكتب إلى الحجاج أنه قدم علي أعرابي شيطان من الشياطين ، فكتب إليه أن ابعث به إليّ ، ففعل فقدم عليه فأكرمه الحجاج وكساه جبة وأنزله فمكث أياماً ، ثم أرسل إليه بعد نومه فقالوا

من لم يتصل الهجاء بينه وبين جرير إلا في الزمن المتـأخر كعمر ابن لجأ وعلفة والسرندي .

وفيهم من كان سبب التهاجي بينهما متصلاً بأحد الخلفـاء كجفنة الهزاني الذي طلب من جرير حلة منحه إياها الوليد بن عبد الملك ، فلما أبى ، هجاه جفنة وشتمه .

ويؤيد النحلة في هذا الحديث أن الحكم بن أيوب الذي وفد عليه جرير كتب إلى الحجاج أنه قدم عليّ أعرابي شيطان من الشياطين فاستقدمه الحجاج ، فلما دخل عليه قال له يا عـدو الله علام تشتم الناس وتظلمهم ؟

أجب الأمير فقال : ألبس ثيابي ؟ فقـالوا لا والله لقد أمرنا أن نأتيه بك على الحالة التي نجدك عليها !! .

قالوا ففزع جرير وعليه قميص غليظ وملاءة صفراء ، فلما رأى ما به رجل من الرسل دنا منه وقال لا بأس عليك إنمـا دعاك للحديث .

فلما دخل عليه قال الحجاج إيه يا عدو الله علامَ تشتم الناس وتظلمهم فقال جعلني الله فداء الأمير والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فأنتصر ، وأخذ يحدثه عن الشعراء الذين هـاجاهم ويظهر أنه معهم مظلوم منتصر ذائد عن كرامته وكرامة قومه ، مجيب على أهاجيهم بنقائض لها .

وطلع الصباح فنهض الحجاج ونهض جرير وقال الحجاج لمن حضر قاتله الله أعرابياً إنه لجرو هراش (انظر الأغاني ج ٧ ص ٤٠ طبعة ساسي) .

فالقصة ليس فيها تساوق ولا اضطراد معقول فإن كان الحجاج يعرفه من قبل ، فلا حاجة لأن يكتب الحكم بن أيوب إليه بصفة جرير ، وإن لم يكن معروفاً لدى الحجاج فأنّى له أن يعلم ما كان من شأنه مع الناس ، ويتضح من هذا أن الحديث موضوع ، ونرجح بعد ، أن الحجاج كان يعرف من أمر جرير أكثر مما ذكر صاحب الاغاني لأن شهرته كانت قد سبقته إلى العراق ، وهو ما يزال في اليمامة .

وإنما أوردنا لك هذه المناقشة لتعلم أن كثيراً مما في كتب الأدب لم يكن غير أحاديث يتناقلها الناس ، دون روية ولا تدقيق ، فيدونها المدونون ، ويحسنون حين يتنصلون من تبعة صدقها ، وينسبونها لرواتها ، وكثير من الأحكام الأدبية والأحاديث يتناقلها الناس عن مجالس الأدباء ، ولكنهم لا يحاولون أن يدققوا فيها كثيراً .

وربما كان لذلك الحديث الطويل الذي يبرئ فيه جرير نفسه أمام الحجاج ، ويذكر أن الشعراء هم الذين أثاروه ، ربما كان له أصل في بعض مجالس الحجاج التي حضرها جرير ، فذكر بعضاً من الشعراء الذين هاجوه ثم زاد الناس في الحديث ما لم يكن فيه .

وأما أَول مقدم لجرير على الحجاج فكان بواسط إذ نزل على عنبسة بن سعيد ولم يكن يدخل واسط أَحد إلا بإذن الحجاج لأنها مدينته ، فلما دخل جرير على عنبسة قال له ويحك لقد غررت بنفسك فما حملك على مافعلت ؟ قال شعر اعتلج في صدري وأَحببت أَن يسمعه الأمير .

فعنفه وأدخله بيتاً في جانب داره ، وقال ، لا تطلعن رأسك حتى ننظر كيف تكون الحيلة لك ، فأتى عنبسةَ رسول الحجاج يدعوه في يوم قائظ ، وهو قاعد بالخضراء ، وقد صب فيها الماء ليتبرد .

وكان الحجاج قاعداً على سرير ، وكرسي موضوع ناحية ، فجاء عنبسة فجلس على الكرسي وأقبل عليه الحجاج يحادثه ، فلما رأى عنبسة انطلاق الحجاج قال له : أصلح الله الأمير ، رجل من شعراء العرب قال فيك شعراً أجاد فيه فاستخفه عجبه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك ودخل مدينتك من غير أن يستأذن له ، قال : ومن هو ؟ قال : ابن الخطفى ، وكان الحجاج عارفا به ، أو سامعاً باسمه ، فلم يسأل عنبسة عن صفته وإنما قال له وأين هو ؟ قال عنبسة : في المنزل ، فنادى الحجاج يا غلام ؛ فأقبل الغلمان يتسارعون ، قال : صف لهم موضعه من دارك ، فوصف لهم فانطلقوا حتى جاؤوا به ، فأدخل عليه وهو

مأخوذ بضبعيه حتى رمي به في الخضراء فوقع على وجهه في الماء ثم قام يتنفش كما يتنفش الفرخ ٠

فقال له هيه ؟ ما أقدمك علينا بغير اذننا لا أمّ لك ، – ولم يقل له من أنت ولا ما هو نسبك ، لعلمه به –

قال جرير : أصلح الله الأمير ، قلت في الأمير شعراً لم يقل مثله أحد فجاش به صدري ، وأحببت أن يسمعه الأمير مني فأقبلت به إليه ٠

فتطلق الحجاج وسكن واستنشده ، فأنشده ، ثم قال يا غلام ، فجاء الغلمان يسعون فقال : عليّ بالجارية التي بعث بها إلينا عامل اليمامة ، فأتي بجارية بيضاء مديدة القامة ، فقال إن أصبت صفتها فهي لك فقال ما اسمها ، قال أمامة فأنشأ يقول :

ودّع أمامة حان منك رحيل   إن الوداع لمن تحب قليل
مثل الكثيب تهيلت أعطافه   فالريح تجبر متنه وتهيل
تلك القلوب صواديًا تيمتها   وأرى الشفاء وما إليه سبيل

قال خذ بيدها ، فبكت الجارية وانتحبت ، فقال ادفعوها إليه بمتاعها ونعلها ورحالها ٠

هذا ما نرجحه من أمر اتصال جرير بالحجاج ثم كان بينهما مجالس تبسط فيها جرير وزاد الناس عليها .

ولم تكن وفاداته على الحجاج خالية من تحريض على الشر ، يثيره الحجاج بين جرير وخصومه ، وإنك لتقول هذا ، وأكثر منه عمّن اتصل بهم جرير أمراء كانوا أم ملوكاً .

وإنك لترى هذه المسارب الضيقة والطرق الخفية التي كان يسلكها هؤلاء الأمراء والملوك لإثارة العصبية بين القبائل ، ولينعم بنو أمية بالملك ، فلا يجتمع العرب إلا على رئاستهم ، من ذلك أن الحجاج قال للفرزدق وجرير وهو في قصره بمجرى البصرة ، ايتياني في لباس آبائكما في الجاهلية فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد في قبة .

وشاور جرير دهاة بني يربوع فقالوا ما لباس آبائنا إلا الحديد فلبس جرير درعاً وتقلد سيفاً وأخذ رمحاً وركب فرساً لعباد بن الحصين يقال له النجاز وأقبل في أربعين فارساً من بني يربوع .

وجاء الفرزدق في هيئته فقال جرير :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج وخلاخله

اعدوا مع الخز الملاء فإنما جرير لكم بعل وأنتم حلائله

ثم رجعا فوقف جرير في مقبرة بني حصين ، ووقف الفرزدق في المربد .

وإنك لترى في هذه القصة كيف يثير الحجاج العصبية بالآباء والأجداد ، وكيف يوجد موضوعاً للتهاجي فيما كان يلبس الآباء والأجداد .

وأقبح من هذا العمل تحريض بشر بن مروان الشعراء بعضهم على بعض ، فقد حمل سراقة ابن مرداس البارقي على هجاء جرير وأكرهه على ذلك ، لا لشيء ، إلا لينعم بها وليضحك من الاثنين ، وليثير العصبية ، وليكثر من تفريق الكلمة .

ولم يقتصر على هذا بل بعث إلى جرير رسولاً يأمره أن يجيب سراقة ، فاستعر التهاجي بين الرجلين .

قال سراقة :

إن الفرزدق برزت أعراقه سبقاً وغودر في الغبار جرير
ما كنت أول محمر قعدت به مسعاته أن اللئام عثور
هذا قضاء البارقي وإنه بالميل في ميزانكم لبصير

فقال جرير :

يا بشر حق لوجهك التبشير هلا غضبت لنا وأنت أمير

بشر أبو مروان إن عاسرته عسر وعند يساره ميسور
إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للئام نصور
قد كان حقك أن تقول لبارق يا آل بارق فيمَ سُبَّ جرير

وذكر أبو الفرج لهذه الأبيات خبراً آخر قال :

بذل محمد بن عمر بن عطارد بن حاجب بن زرارة أَربعة آلاف درهم وفرساً لمن فضل من الشعراء الفرزدق على جرير ، فلم يقدم عليه أحد منهم ، إلا سراقة البارقي فإنه قال يفضل الفرزدق على جرير :

أَبلغ تميماً غثها وسمينها والحكم يقصد مرة ويجور
إن الفرزدق برزت أَعراقه سبقًا وخلف في الغبار جرير
ذهب الفرزدق بالفضائل والعلى وابن المراغ[1] مخلف محسور
هذا قضاء البارقي وإنني بالميل في ميزانهم لبصير

فنسخ بشر بن مروان القصيدة وأرسلها مع رسوله إلى جرير يأمره أن يجيب عليها ، وألا يبرح الرسول حتى يرجع بالجواب ، فقال جرير :

يا صاحبيَّ هل الصباح منير أَم هل للوم عواذل تفتير

---

(١) ابن المراغ وابن المراغة (ابن الحمارة) لقب لجرير هجاه به الأخطل .

وفيها يخاطب بشراً ويقول :

قد كان حقك أن تقول لبارق   يا آل بارق فيم سب جرير

يعطي النساء مهورهن كرامة   ونساء بارق مالهن مهور

فأخذها الرسول ومضى بها إلى بشر فقرئت بالعراق وأفحم سراقة فلم ينطق بعدها بشيء من مناقضته .

وقالوا اجتمع جرير والفرزدق عند بشر بن مروان فقال لهما بشر : إنكما قد تقارضتما الأشعار ، وتطالبتما الآثار ، وتقاولتما الفخر وتهاجيتما ، فأما الهجاء فليست بي إليه حاجة فجددا بين يدي فخرا ودعاني مما مضى .

فقال الفرزدق :

نحن السنام والمناسم غيرنا   فمن ذا يساوي بالسنام المناسما

فقال جرير :

على موضع الأستاه أنتم زعمتمُ   وكل سنام تابع للغلاصم

فقال الفرزدق :

على محرض للفرث أنتم زعمتمُ   ألا إن فوق الغلصمات الجماجما

فقال جرير :

وأنبأتمونا أنكم هام قومكم   ولا هام إلا تابع للخراطم

فقال الفرزدق :

فنحن الزمام القائد المقتدى به   من الناس مازلنا ولسنا لهازما

فقال جرير :

فنحن بني زيد قطعنا زمامها   فتاهت كساري طائش الرأس عارم

فقال بشر غلبته ياجرير بقطعك الزمام وذهابك بالناقة ، وأحسن الجائزة لهما وفضل جريراً .

فأنت ترى في هذا لوناً من العبث بالشعراء ، وشيئاً أبشع منه وهو تفريق الكلمة ، وغرس العداوة في القلوب ، حتى امتلأت حقداً فكان الشاعر يجهد جهده لينال من المحصنات ، وما إلى ذلك مما تأنفه مكارم الأخلاق ، إرضاء لحقده ، وإطفاء لجمرة غضبه ، فإذا أصاب الظفر لم يعطف ، وإن خاب دس وأثار الشر ، وكان جرير يقول : إنهم يبدؤونني ... ثم لا أعفو ...

*

في حمى الخلافة

اتصال جرير بعبد الملك

تطلع جرير وهو في العراق إلى أفق أسمى من الأفق الذي كان يعيش فيه ، واشرأب إلى رجل أعظم ممن كان يعيش في كنفه ، وكيف لا يطمح ، وهو شاعر متوقد ، عظيم الأطماع ، كبير الآمال ، وقديماً كان الشعراء متطلعين إلى خير مما هم فيه ، وقديماً هاجر الشعراء إلى العواصم ، لأن السوق أروج ، ومن عرف السوق ورواجها ، قصدها ، ونعم بخيراتها .

وكذلك كان شأن جرير ، عرف تهالك الشعراء على أبواب عبد الملك ، وعلم من أمر الأخطل وغير الأخطل ما هاج فيه الرغبة بمديح عبد الملك ، عسى أن يغدق عليه ما كان يغدقه على الشعراء ، فيصبح من أبواق الأمويين الصارخة .

ولكن عبد الملك لا يقرب منه شاعراً إلا بعد أن يثق من ميله إلى الملك الأموي ، فلم يكن يرضى ، أو لم يكن يتظاهر

بالرضى عمن كانوا يدعون بدعوة آل الزبير ، أو يتظاهرون بالحياد .

ووجد جرير أن الوسيلة إلى عبد الملك حاضرة ، فاتخذ الحجاج مطية إلى عبد الملك ، ولعل الحجـاج اتخذ جريراً مطية له ، ليُرضي عبدَ الملك بشاعر فحل يضمه إلى حمى الخلافة .

فأَوفد الحجاج ابنه محمداً إلى عبد الملك ، وأَوفد إليه جريراً معه ، ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته عليه .

فلما وردوا استأذن له محمد ، على عبد الملك ، فلم يأذن له ، وكان عبد الملك لايسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيرية على ظنه .

فلما استأذن له محمد ولم يأذن عبد الملك ، أعلمه أن أباه الحجاج يسأله في أمره ويقول : إنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ، ولا نصره بيده ولا بلسانه .

وقال له محمد « يا أمير المؤمنين ! إن العرب تتحدث أن عبدك وسيفك الحجاج شفع في شاعر قد لاذ به وجعله وسيلة ثم رددته . فأذن له فدخل فاستأذن في الإنشاد فقال له : وما عساك أن تقول

فينا بعد قولك في الحجاج ... ألست القائل :

من سَدَّ مُطَّلع النفاق عليكمُ أو من يصول كصولة الحجاج

إن الله لم ينصرني بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته ...

أولست القائل :

أو مَن يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأَزواج

يا عاض كذا وكذا من أمّه ، والله لهممت أن أطير بك طيرة بطيئاً سقوطها ... اخرج عني . فأُخرج بِشَرّ .

فلما كان بعد ثلاث شفع محمد لجرير وقال يا أمير المؤمنين إني أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته في جرير ، فلما أذنت له خاطبته بما أطار لبه منه وأشمتّ به عدوه ، ولو لم تأذن له لكان خيراً له مما سمع ، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولي فافعل ، فأذن له ، فاستأذنه في الإنشاد فقال لا تنشدني إلا في الحجاج ، فإنما أنت للحجاج خاصة ، فسأله أن ينشده مديحه فيه ، فأبى ، وأقسم ألا ينشده إلا من قوله في الحجاج فأنشده وخرج بغير جائزة .

فلما أزف الرحيل قال جرير لمحمد : إن رحلت عن أمير المؤمنين ولم يسمع مني ، ولم آخذ له جائزة ، سقطتُ آخر الدهر ، ولست بارحاً بابه أو يأذن لي في الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الأذن له فقال جرير لمحمد : ارحل أنت وأقيم أنا .

فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير ، واستأذنه له وسأله أن يسمع منه وقبل يده ورجله ، فلان قلب عبدِ الملك ، وعلم أن هذا المنع كافٍ ليكون درساً بليغاً لجرير ولغيره من الشعراء ، فأذن له فدخل ، فاستأذن في الإنشاد ، فأمسك عبد الملك ، فقال له محمد : انشد ، ويحك ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطونَ راح

فتبسم عبد الملك ، وقال : كذلك نحن وما زلنا كذلك . ثم عرّض جرير بابن الزبير فقال :

دعوت الملحدين أبا خُبَيْبٍ   جماحا ، هل شُفيتَ من الجماح

وقد وجدوا الخليفة هبرزيا   أليف العيص ليس من النواحي

ولما أتى على ذكر زوجته فقال :

تعزت أم حزرة ثم قالت   رأيت الموردين ذوي لقاح

تُعلل ، وهي ساغبة ، بنيها   بأنفاس من الشبم القراح

قال له عبد الملك : هل ترويها مائة لقحة فقال : إن لم يروها ذلك فلا أرواها الله فهل إليها — جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين — من سبيل ، فأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء .

وكانت بين يدي عبد الملك جامات من ذهب ، فقال له جرير : يا أمير المؤمنين تأمر لي بواحدة منهن تكون محلباً ، فضحك ودحس إليه واحدة منهن بالقضيب ، وقال خذها لا نفعتك ، فأخذها وقال بلى والله يا أمير المؤمنين ، لَينفعني كل ما منحتنيه ، وخرج من عنده .

وسيمر بك أن جريراً ذكر هذا العطاء في شعره الذي يمدح به يزيد بن عبد الملك فقال :

أَعطوا هُنَيْدَةَ[1] يحدوها ثمانيةٌ ما في عطائهم مَنٌّ ولا سرَف

وقد رأيت من هذه الوفادة عصبية عبد الملك ، ولا عجب أَن يغضب عبد الملك على الشعراء الزبيريين إذا كان ينفس على أمرائه أن يختصوا بالشعراء دونه ، وكذلك كان بنو أمية ، يريدون أن تتوحد كلمة العرب على الخليفة وحده ، وقد يسيمون أمراءهم الذلة والهوان ، إن استعلوا في الارض وكان لهم من الصولة مثل ما للخليفة .

---

(1) الهنيدة اسم علم على المائة

خذ مثلاً لذلك الحجاج الذي طغى وتجبر ، كيف استقدمه عبد الملك ماشياً في ركاب زوجٍ له . هذه دخيلة ملوك بني أمية ، وإنها في السياسة لشيءٌ عظيم .

كانت وفادة جرير الأولى على عبد الملك حوالى سنة ٧٠ ه على وجه التقريب[1] . وإلى هذه السنة – على مانرجح – لم يكن جرير قد اتصل بالأخطل اتصالاً شخصياً ، ولا عرفه ، إنما كان هناك اتصال بالهجاء ، فقد كانا يتهاجيان على غير معرفة ببعضهما ، ولعل الأخطل كان قد عرف جريراً حين وفد على عبد الملك لأول مرة ، ولكن المحقق أن جريراً لم يعرف الأخطل في هذه الوفادة الأولى وإنما عرفه في وفادة أخرى[2]

---

(١) بويع عبد الملك بالخلافة سنة ٦٥ للهجرة

(٢) قيل إن جريراً خرج الى الشام متلثماً فنزل منزلاً ببني تغلب فرآه رجل هو (الأخطل) قال ممن أنت قال من بني تميم قال أما سمعت ماقلت لغاوي بني تميم وانشده مما قال في جرير فقال جرير أما سمعت ما قال لك غاوي بني تميم وانشده ثم عاد الأخطل وعاد جرير إلى نقضه ، فقال التغلبي من أنت لاحياك الله والله لكأنك جرير قال فأنا جرير ، قال التغلبي وأنا الأخطل .

وهذه قصة رواها ابن سلام عن شيخ من ضبيعة والسند ضعيف فيها والوضع ظاهر .

فقد قيل : « إن جريراً وقف على باب عبد الملك ، والأخطل داخل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم ير أحد منهما صاحبه فلما استأذنوا عليه لجرير أذن له فدخل فسلم ثم جلس .

وقد عرفه الأخطل ، وطمح بصر جرير إليه — ولعل ذلك لمقام الأخطل من عبد الملك — ورأى أن الأخطل ينظر إليه شديداً فقال له جرير من أنت قال أنا الذي منعت نومك ، وتهضمت قومك ، فقال جرير ذلك أشقى لك كائناً من كنت ؛ ثم أقبل على عبد الملك فقال : من هذا يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك ، فضحك ثم قال هذا الأخطل يا أبا حزرة .

فرد جرير عليه بصره ، وقال : فلا حياك الله يابن النصرانية . أما منعك نومي ؟! فلو نمت عنك لكان خيراً لك ، وأما تهضمك قومي ، فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليه الذلة وباء بغضب من الله ، وأدى الجزية عن يد وهو صاغر ، وكيف نتهضم — لا أم لك — قوماً فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأمور ومحكوم عليه لاحاكم ، ثم أقبل على عبد الملك فقال أتأذن لي يا أمير المؤمنين في ابن النصرانية فقال عبد الملك لا يجوز أن يكون ذلك بحضرتي .

فوثب جرير مغضباً فقال عبد الملك : قم يا أخطل واتبع صاحبك ، فإنما كان غضباً علينا فيك ، فنهض الأخطل فقال عبد الملك لخادم له : انظر ما يصنعان إذا برز له الأخطل ، فخرج جرير فدعا بغلام له فقدم إليه حصاناً أدهم فركبه وهدر والفرس يهتز من تحته .

وخرج الأخطل فلاذ بالباب وتوارى خلفه ، ولم يزل واقفاً حتى مضى جرير فدخل الخادم إلى عبد الملك فأخبره فضحك وقال « قاتل الله جريراً ما أخله ، أما والله لو كان النصراني برز إليه لأكله . »

ومن وفادات جرير على عبد الملك قصة طريفة اعتقد أن لخيال الرواة نصيباً فيها ، وهي ترمي إلى تقرير شاعرية جرير وتفضيله على سواه .

قالوا : « صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ودعا إليه الناس فأكلوا فقال بعضهم : ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه . فقال أعرابي من ناحية القوم : أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه .

فطفقوا يضحكون من قوله ، وأشار إليه عبد الملك فأدني منه فقال ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يبين به

صدقك فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا بهجر ، في ترب أحمر في أقصى حجر ، إذ توفي أبي وترك كلاً وعيالاً ، وكان له نخل فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها ، كأن ثمرها أخفاف الرباع ، لم ير ثمر قط ، أغلظ ولا أصلب ولا أصغر نوى ، ولا أحلى حلاوة منها ، وكانت تطرقها أتان وحشية ، قد ألفتها تأوي الليل تحتها فكانت تثبت رجليها في أصلها ، وترفع يديها ، وتعطو بفيها ، فلا تترك فيها إلا النبذ المتفرق ، فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع ، فانطلقت بقوسي وأسهمي ، وانا أظن أني أرجع من ساعتي فمكثت يوماً وليلة لا أراها حتى اذا كان السحر أقبلت ، فتهيأت لها فرشقتها فأصبتها وأجهزت عليها ، ثم عمدت إلى سرتها فأفريتها ثم عمدت إلى حطب جزل ، فجمعته إلى رضف ، وعمدت إلى زندي فقدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب ، وألقيت سرتها فيه ، وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها ، فكشفتها وألقيت ما عليها من قذى أو سواد أو رماد ، ثم قلبت مثل الملاءة البيضاء فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزعة والمنصفة فسمعت لها أطيطاً كتداعي عامر وغطفان ، ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي ، فبم

أحلف ؟ أني ما أكلت طعاماً مثله قط ، فقال له عبد الملك : لقد أكلت طعاماً طيباً فمن أنت قال : أنا رجل جانبتني عنعنة [1] تميم وأسد، وكسكسة ربيعة ، وحوشي أهل اليمن ، وإن كنت منهم . قال فمن أيهم أنت ؟ قال : من أخوالك ، بني عذرة . قال أولئك فصحاء الناس فهل لك علم بالشعر ؟ قال سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين ، قال أي بيت قالته العرب أمدح ، قال قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وكان جرير في القوم فرفع رأسه وتطاول .

ثم قال عبد الملك فأي بيت قالته العرب أفخر ، قال قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

فتحرك جرير . قال فأي بيت أهجى ، قال قول جرير :

فغض الطرف إنك من نُمَيْرٍ   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

---

(١) عنعنة تميم ابدالها العين من الهمزة فيقولون « عن » موضع « إن » والكسكسة لتميم وهي إلحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف يقال : أكرمتك = اكرمتكس .

والحوشي : الغامض من الكلام .

ومنه يعلم أن الكسكسة لتميم لا لربيعة .

فاستشرف لها جرير قال فأي بيت أغزل ، قال قول جرير :

إن العيون التي في طرفها مرض[1] قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب .

قال فأي بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً ، قال قول جرير:

سرى نحوهم ليل كأن نجومه قناديل فيهن الذُبال المفتل

فوثب جرير وقال جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين ، فقال له عبد الملك : ولـه مثلها من بيت المـال ولك جائزتك يا جرير لا تنتقص منها شيئاً . وكانت جائزة جرير أربعة الآف درهم وتوابعها من الحملان والكسوه .

وخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية الآف درهم وفي اليسرى رزمة ثياب[2] » .

---

(۱) ورد أيضاً (حَوَرٌ) (۲) الأغاني

وفاداته على الوليد بن عبد الملك :

ورأى جرير المرعى خصباً عند بني أمية ، وحسنت منزلته لديهم، فكان يفد على الملوك واحداً بعد آخر ، وما تصرم زمن عبد الملك حتى استقبل زمن الوليد فوفد عليه ولقي كرماً ، ولم يزل يتناول جائزته التي خصصت له زمن عبد الملك ، من مال و كسوة .

وفي زمن الوليد ثار التهاجي بين جرير وبين جفنة الهزاني ، وذلك أن جفنة جاء جريراً و كان يمدر حوضاً له فقال ياجرير قم إلى ههنا قال نعم ، ثم جاءه وقال ما حاجتك : قال جفنة : مدحتك فاستمع مني قال : أنشدني فأنشده فقال جرير قد والله أحسنت وأجملت فما حاجتك قال تكسوني الحلة التي كساكها الوليد ابن عبد الملك هذا العام .

فقال جرير : إني لم أقف فيها بالموسم ، ولا بد من أن أقف فيها العام — تباهياً بها — ولكني أكسوك حلة خيراً منها كان كسانيها الوليد عام أول .

فقال جفنة : ما أقبل غيرها بعينها ، قال : بلى . فاقبل وأزيدك معها دنانير نفقةً ، فقال ما أفعل ومضى ، وأتى المرّارَ بن منقذ و كان

شاعراً أعان الفرزدق على جرير فحمل جفنة على ناقة له يقال لها القصواء فقال جفنه:

لعمرك للمرّار حين لقيته على الشحط خير من جرير وأكرم

فرد عليه جرير بقصيدة منها:

لقد بعثت هزان جفنة مائراً فآب وأجدى قومه شر مغنم

ومن هنا نرى أن التهاجي بينهما لم يتصل بزمن عبد الملك ولم يكن قبل اتصال جرير بالحجاج، فإن صح هذا — وهو الحق — فلا يصح ما قاله الرواة من تحدّث جرير بهذا الخبر للحجاج أول اتصاله به، وهذا وغيره مما سلف لنا القول فيه، يحملنا على الشك بالحديث الطويل الذي قيل إنه جرى لجرير أول اتصاله بالحجاج.

ثم إن التهاجي بين جرير وبين عدي بن الرقاع — شاعر الوليد الخاص — استعر زمن الوليد على ما نرجح، وآية ذلك أنّا لم نقف على ميل عدي لشاعر من الشعراء الذين هاجوا جريراً، ليكون الدافع إلى هذا العداء نصرته لأحد، ونؤكد أن سبب التهاجي بينهما تقدمُ عدي بن الرقاع عند الوليد وهو ما أثار نفس جرير عليه أضف إلى هذا أن جريراً كان مضرياً، وكان عدي قحطانياً، وكانت

العداوة محتدمة بين القحطانية والمضرية ، فإذا جمعت كل أولئك عرفت تنكر جرير لعدي بالعداوة .

قالوا : كان جرير عند الوليد وعدي بن الرقاع ينشده ، فقال الوليد لجرير : كيف تسمع ، — فلم يجبه عن السؤال قبل أن يعرف الرجل الذي يفخر به الخليفة — فقال : ومن هو يا أمير المؤمنين قال : عدي بن الرقاع ... قال جرير فإن شر الثياب الرقاع . وسكت قليلاً ، ثم قال : عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية .

فغضب الوليد وقال يابن اللخناء ما بقي لك إلا أن تتناول كتاب الله ... والله ليركبنّك ... ياغلام ... أوكفه حتى يركبه .

وأَسرع الغلام ليأتمر ... فغمزه عمر بن الوليد ... فأَبطأ بالإِكاف ، فلما سكن غضب الوليد قام إليه ابنه عمر فكلمه وطلب إليه وقال هذا شاعر مضر ولسانها فإن رأى أمير المؤمنين ألاّ يغض منه . ولم يزل به حتى أعفاه وقال له والله لئن هجوته أو عرّضت به لأفعلن بك ولأفعلن فقال جرير في عدي قصيدته التي يقول فيها :

أَقصر فإن نزاراً لن يفاخرها فرع لئيم وأصل غير مغروس

وذكر وقائع نزار في اليمن ، فعلُم أنه عناه ولم يجبه الآخر بشيء .

وشبيه بهذا الخبر خبر آخر ولعل أصل الخبرين واحد وإن تعدد إيرادهما وفي هذا الخبر ترى نفس جرير الوثابة وأغاظته عدياً من حيث لم يكن هذا يجيب .

قالوا : « كان عدي بن الرقاع خاصاً بالوليد مداحاً له فكان جرير ، يجيء إلى باب الوليد ، فلا يجالس أحداً من النزارية ولا يجلس إلا إلى رجل من اليمن ، بحيث يقرب من مجلس ابن الرقاع ، إلى أن يأذن الوليد للناس فيدخل ، فيقال له : يا أبا حزرة ؟ أختصصت عدوك بمجلسك ! فيقول إني والله ما أجلس إليه إلا لأنشده أشعاراً تخزيه وتخزي قومه ، ولم يكن ينشده شيئاً من شعره وإنما كان ينشد شعر غيره ليذله ويخيفه نفسه .

وأذن الوليد للناس ذات عشية ، فدخلوا فأخذ الناس مجالسهم وتخلف جرير واطمأنوا فيها ، فبينما هم كذلك إذا بجرير قد مثل بين السماطين يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ابن الرقاع المتفرقة ، أؤلف بعضها إلى بعض ،

فقال الوليد والله لهممت أن أخرجه على ظهرك إلى الناس فقال جرير وهو قائم كما هو .

فإن تنهني عنه فسمعاً وطاعة وإلاّ فإني عرضة للمراجم

فقال له الوليد لا كثّر الله في الناس أَمثالك فقال له جرير : يا أمير المؤمنين إنما أنا واحد قد سعّرت الأمة فلو كثر أمثالي لأكلوا الناس أكلاً .

فتبسم الوليد حتى بدت ثناياه تعجباً من جرير وجلده ثم أمره فجلس » .

كذلك كانت وفادته على الوليد فإذا انصرف عنه وفد على عبد العزيز بن الوليد أو على سواه .

ومنذ اتصل ببني أمية وأمرائهم حسنت حاله وأصبح يتذوق من الشراب أطيبه ، ويلبس من الملابس أثمنها .

قيل إن جريراً قدم على عبد العزيز بن الوليد وهو نازل بدير مُرّان فكان يعدو عليه جماعة بكوراً فيخرج جرير إليهم ويجلس في برنس خزٍ له ، لا يكلم أحداً حتى يأتي طباخ عبد العزيز إليه بقدح من طِلاَء [1] مسخن يفور ، وبكتلة من سمن كأنها هامة

(١) الطلاء ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه وقد يكني به عن الخمر .

رجل ، فيخوضها فيه ثم يدفع القدح إلى جرير فيأتي عليه .

ثم يقبل جرير عَلَى الجماعة ، يحدثهم في كل فن ، وينشدهم لنفسه ولغيره حتى يحضر غداء عبد العزيز ، فينهض إليه الجميع ، وكان جرير يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل ، فقال له رجل : ما يغني عنك هذا التسبيح مع قذفك للمحصنات . فتبسم وقال يابن أَخي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ... إنهم والله يابن أخي يبدؤونني ثم لا أحلم .

وفي آخر عهد الوليد ، فقد جرير الركن الأَيد الذي كان يعتمد عليه في العراق ، وهو الحجاج ، ولكنه استبدل به ركن الخلافة إذ ثبتت قدمه في البلاط الأموي ، وإن لم يكن ثبوت قدم الأخطل فيها .

عند سليمان بن عبد الملك

واستقبل جرير عهد سليمان سنة ٩٦ هـ فوجد فيه خيراً كما وجد في عهد سواه ، وكان جرير مقرباً من سليمان ، ولم يفت الخليفة في تقريبه جريراً أو سواه أن يغري بين الشعراء ، كما كان يفعل بشر بن مروان وغيره من الأمراء والخلفاء .

فقد اجتمع الفرزدق وجرير ، وكُثيّر وابن الرقاع عند سليمان ابن عبد الملك فقال : أنشدونا من فخركم شيئاً حسناً . فبدرهم الفرزدق فافتخر بما أعجب سليمان ، فقال لهم لا تنطقوا فوالله ما ترك لكم مقالاً .

وفي هذا ما فيه من إثارة نفوس الشعراء بعضهم على بعض وشبه ذلك ما جرى حين حج سليمان ومعه الشعراء ومر بالمدينة فأُتي بأسرى من الروم ... فدُفع إلى جرير أسير ليقتله فدسّ بنو عبس إليه سيفاً قاطعاً فضرب الأسير ضربة أطارت رأسه ، ودُفع إلى الفرزدق أسير وأعطاه سليمان سيفاً ليقتله به فقال لا بل أضربه بسيف مجاشع ، واخترط سيفه وضربه به ، فلم يغن شيئاً ، فقال له سليمان ، أما والله لقد نعى عليك عارها وشنارها .

ولعله أغرى جريراً أن يهجوه ، أو لعل جريراً وجد موضوعاً للهجاء فقال فيه قصيدته :

ألا حيِّ ربع المنزل المتقادم وما حل مذ حلت به أمُّ سالم

وفيها :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ضربت به عند الإمام فأرعشت يداك ، وقالوا ! محدث غير صارم

واعتذر الفرزدق عن هذه النبوة بقصيدة قال فيها :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

وقيل إن الفرزدق استوهب الأسير من سليمان فوهبه له فأعتقه .

وجاء عهد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فلم يلق الخير الذي يرجو ، ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً لا تغره الفانية ، ولا يحب سفاسف القول ، وكان يكره هذه المدائح التي تقوم على النفاق والزلفى .

ولقد قصده جرير فيمن قصده من الشعراء ، ولكن عمر لم يكن يصل إليه شاعر .

ولزم جرير باب عمر ، ورأى ذات يوم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فصاح به جرير :

يا أيها القارئ المرخي عمامته   هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه   إني لدى الباب كالمصفود في قرن

فدخل عون على عمر ، فاستأذن له ، فأدخله عليه وكان جرير قد هيأ له شعراً فلما رآه غيّره وقال :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا   من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت   أم تكتفي بالذي بلغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تعرقني   قد طاب بعدك إصعادي ومنحدري

لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يجود لنا بادٍ على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلاً من الجن أو مساً من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

فبكى عمر ، ثم قال يا بن الخطفى أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم ؟ أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ .

فقال فإني ابن سبيل ، قال لك ما لأبناء السبيل : زادك ونفقة تبلغك بلدك وتبدل راحلتك ، إن لم تحملك ، فألح عليه وطلب ما عوده الخلفاء وهو أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان فقال له عمر : كل امرئ يلقى فعله .

وقالت بنو أمية يا أبا حزرة مهلاً عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك بأموالنا .

فخرج يقول : خرجت من عند رجل يقرب الفقراء ، ويباعد الشعراء وأنا مع ذلك راضٍ عنه .

وجمعت له بنو أمية مالاً عظيماً ، فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر .

وقد قيل : إن عمر قال لجرير : إني لا أرى لك في مال الله حقاً ، ولكن انتظر يخرج عطائي ، فأنظر ما يكفي عيالي سنة منه فأدخره لهم ، ثم إن فضل فضل صرفناه لك ، فقال جرير لا بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً قال عمر فذلك أحب إليّ .

فخرج فلما ولى قال عمر « إن شر هذا ليتقى ، ردوه إليّ » فردوه . فقال إن عندي أربعين ديناراً وخلعتين ، إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى ، وأنا مقاسمك في ذلك . على أن الله عز وجل يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك ، فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين وأنا والله راض . قال عمر : « أما وقد حلفت فإن ما وفرته عليّ ولم تضيّق به معيشتنا ، آثر في نفسي من المدح فامض مصاحباً » . فخرج .

ونحن لا نطمئن إلى هذا القول كل الاطمئنان لأن عمر لم يكن يدّخر من المال شيئاً فيما نعلم ، بل كان يخرج من ماله فيرده لبيت المال ، حتى أنه لم يجد عنده ، مرةً ، ما يكفيه لنفقة الحج غير بضعة عشر ديناراً ، وحتى أنه أخذ حلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وجعله في الخزانة العامة ، أضف إلى هذا أن

عمر لم يكن ممن يهاب الشعراء فيعيد إليه شاعراً يخاف شره ، وأي خوف لخليفة زاهد مقيم لشعائر الإسلام مثل عمر ، وإنه لأيسر عليه أن يمنع الشاعر من أن يعذبه على مرأى ومسمع من الناس .

فإن عمر حينما كان واليًا على المدينة للوليد بن عبد الملك أمر أن يقرن جرير وعمر بن لجأ وأن يوقفا للناس بالسوق لما تهاجيا .

وكان عمر بن لجأ شابًا كأنه حصان ، وكان جرير شيخاً قد أسن وضعف ، فكان ابن لجأ يقول :

رأوا قمراً بساحتهم منيراً وكيف يقارن القمر الحمارا

وكان ينزو به وهما مقرونان في حبل ، فيقع ابن لجأ قائماً ، ويسقط جرير إلى الأرض ، ويخر لركبتيه ووجهه ، فإذا قام نفض الغبار عنه ، ثم قال بغنةٍ قولاً يخرج الكلام به من أنفه ، وكان كلامه كأن فيه نوناً ...

ولست مفارقًا قرَني حتى يطول تصعدي بك وانحداري

فقال رجل من جلساء عمر بن عبد العزيز حين حضر غداؤه لو دعا الأمير بأسيريه ففداهما معه[1] ففعل ذلك .

---

(١) وقيل أيضاً إن الوليد بن عبد الملك حينما قدم المدينة ورآهما يتهاجيان أمر والي المدينة محمد بن حزم الأنصاري أن يضربهما ويقيمهما على البلس

ولا شك إن من يخشى مغبة منع الشاعر ، يكون أكثر رهبة منه إذا آذاه ومع ذلك لم يخشه وقد عذبه ومن هذا نتبين أن قصة خوف الخليفة عمر بن عبد العزيز من جرير ليست من الحقيقة في شيء .

ولا ينفي ما تقدم قول المستشرق الأستاذ كليمان هوار من «أن عمر كان يفضل جريراً على بقية الشعراء .»

وبينٌ أن هذا التفضيل لا يستلزم إنعام عمر على جرير ، ولا يقتضي نوال الشاعر ما عوده إياه خلفاء بني أمية ، وإنما هو تفضيل الصالح التقي العفيف لمن يعلم عنه شيئاً من تقوى وصلاح وعفة .

وانصرم عهد عمر ولم يكن فيه للشعراء ما يحبون ، ومن المؤكد أن هذا الزمن كان أجدب أيامهم ، واستقبلوا عهد يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ بشيء من الرجاء فأعاد يزيد سيرة من تقدم في اصطناع الشعراء . وكان من جرير أن عرّض له بالهنيدة التي جاد بها عليه أبوه عبد الملك فقال من قصيدة يمدحه بها :

أعطوا هنيدة[1] يحدوها ثمانية ... ما في عطائهم منٌّ ولا سرف

مقرونين ففعل (وعلى كل فائدة جرت بعد أن اتصل جرير بالخلفاء لا قبل ذلك كما رأيت عند كلامنا على الحديث الطويل بين جرير والحجاج أول اتصاله به) .

(١) اسم للمائة من الابل اختلف في جواز دخول أل التعريف عليها.

وجاء زمن هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ ه فكان يقرب الفرزدق وجريراً شأنه معهما ومع الأخطل حينما كان أميراً ، ومنذ عهد إمارته كان شر الثلاثة قد استفحل ، فأصبحوا شغل الشاغل ، وحديث المقيم والراحل ، وأصبح الناس يخشون استطالة ألسنتهم فلم يكن أحد يستطيع ان يتعرض لهم إلا سقط .

وقد قيل إن هشام بن عبد الملك ، قبل أن يلي الخلافة ، قال لسبة بن عقال ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائرهم في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ .

فقال سبة : أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر .

فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً نحصله ، فقال : ما عندي غير ما قلت ، فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يابن الأهتم ، فقال : أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأشدهم ميلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلاهم عللاً ، الطامي إذا زخر ، والحامي إذا زأر ، والسامي إذا خطر ، الذي إن هدر ، قال ، وإن خطر ، صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان : فالفرزدق .

وأَما أحسنهم نعتاً ، وأَمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ! فالأخطل .

وأَما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأَهتكهم لعدوه ستراً ، الأغر الأبلق ، الذي إن طلب لم يُسبق ، وإن طلب لم يلحق ، فجرير وكلهم ذكي الفؤاد رفيع العماد ، واري الزناد ... فضحك هشام وقال ما رأيت كتخلصك يا بن صفوان من مدح هؤلاء ووصفهم حتى أرضيتهم جميعاً وسلمت منهم .

وفي الحق إن الحكم بين هؤلاء الثلاثة كان أَمراً صعباً ومركباً خشناً ، ومزلة تعقبها مذلة .

ومن أَجل هـذا لم يكن يجرأ على الحكم بينهم ذو مكانة يخشى أَن تنال بسوء ، وكلما مرت الأيام كان الخوف من الحكم بينهم يزداد اتساعاً ، بنسبة اتساع شهرتهم ، وناهيك بهـذه الشهرة التي أَوجدت في جيش من الغزاة اختلافاً كبيراً .

قالوا بينما المهلب ذات يوم بفارس ، وهو يقاتل الأزارقة سمع في عسكره جلبة وصياحاً فقال: ما هذا قالوا : جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء فأذن لهم فقالوا إنا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم أَن أحدهما أشعر من الآخر وقد رضينا بحكم

الامير فقال كأنكم أردتم أن تعرضوني لهذين الكلبين ليمزقا جلدتي ، لا أحكم بينهما ، ولكني أدلكم على من يهون عليه جرير والفرزدق ، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق .

فلما كان الغد خرج عبيدة بن هلال اليشكري ودعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من عسكر المهلب كان لقطري صديقاً ، فقال له يا عبيدة سألتك الله إلا أخبرتني عن شيء أسألك عنه ، قال سل ، قال أوتخبرني ؟ قال : نعم إن كنت أعلمه ، قال : أجرير أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبحك الله أتركت القرآن والفقه وتسألني عن الشعر ؟ قال : إنا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك فقال من الذي يقول :

وطوى الطرادُ بطونهن كأنها طي التِجار بحضرموت برودا

فقال : جرير ، قال : هذا أشعر الرجلين .

ومن هذه القصة ترى خوف الأمراء وإشفاقهم من التعرض لهما كما ترى اتساع أفق شهرتهما ، فإن كان هذا كذلك زمن المهلب وعبد الملك ، فما ظنك حينما خبا ضياء حياتهما واحداً إثر آخر .

ولقد شهد هشام انطفاء هذه الأضواء التي كانت تغمر الأمة العربية ، والتي كانت تملأ الدنيا وتشغل الناس ، عن حق وصدق ، شهد هشام انطفاء شعلة الأخطل ، وهو أمير وشهد مصرع الفرزدق وجرير وهو خليفة .

إذ مات الأخطل سنة ٩٢هـ والفرزدق ١١٤ هـ ومات بعده جرير بأشهر ، وقيل بأربعين أو ثمانين يوماً ، ونعي الفرزدق إلى المهاجر بن عبد الله وجرير عنده فقال :

مات الفرزدق بعد ما جدّعته   ليت الفرزدق كان عاش طويلاً

فاستكبر المهاجر هذا اللؤم والشماتة ، فقال بئس لعمر الله ما قلت في ابن عمك أتهجو ميتاً ؟ أما والله لو رثيته لكنت أكرم العرب وأشعرها .

فقال جرير إن رأى الأمير أن يكتمها علي ، فإنها سوءة ثم قال من وقته :

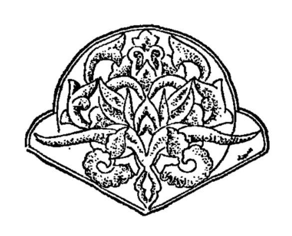
فلا وضعت بعد الفرزدق حامل   ولا ذات بعل عن نفاس تعلت
هو الوافد الميمون والراتق الثأى   إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت

ثم بكى ، وكفر عن خطيئته ، وقال أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء بعده ، ولقد كان نجمنا واحداً ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقلما مات ضد أو صديق إلا تبعه صاحبه .

فكان كذلك ، ومات جرير بعده بأربعين أو ثمانين يوماً ، أو بعام ، بعد أن رثاه بقصائد عدة تحدث فيها عن محامد الفرزدق وكرم محتده .

وبذلك انطوت الصفحة الثالثة من هذه الفورة العربية :

أما امتداد حياة جرير ، فربما أشرف على التسعين لأنه ولد في خلافة عثمان وهي من سنة ٢٣ - ٣٥ هـ فاذا افترضت أنه ولد سنة ٣٠ هـ وأنه توفي سنة ١١٤ هـ كان عمره (٨٤) عاماً وقيل إنه توفي باليمامة سنة ١١٠ هـ أو سنة ١١٦ هـ ويقول الأستاذ كليمان هوار إنه توفي سنة ٧٢٨ م وفي شذور العقود لابن الجوزي أنه توفي سنة ١١١ هـ .



*

طبيعته

رأيت مما مر بك ، أن جريراً بلغ الغاية التي يأمل فيها شاعر هجاء يريد أن يخافه الناس ، وإذا خشي الناس سيف الحجاج ، وكان العرب يضطربون له خوفاً وفرقاً فما كان ذلك بأشد وقعاً عليهم من لسان جرير ، وبحسبك أن تعلم أنه في بيته المشهور :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

أخمد جذوة من جذوات العرب ، وأطفأ الجمرة الأخيرة من جمراتهم ، وسيمر بك نبأ هذا بعد حين .

ولقد عاش جرير في بيئة أغرته باللؤم ، وعاصر فئة من الشعراء حملته على القِحة ، وكان يحمل في قلبه نفساً تضطرم للعزة ، وتحتدم للانتقام ، فعاش مهيب اللسان ، مخشي الجانب ، جباها ، متحدياً ، شرساً ، وجرواً هراشاً ، كما قال الحجاج .

وكان له من السياسة حامٍ يحميه ، ومن العصبية معقل يلتجئ إليه ، بل كان حماة الأخلاق والدين من الأمراء والخلفاء الأمويين ،

يحرضون على ما كان فيه ، ويغرون بينه وبين الشعراء .

ولو عاش كل حياته في عصر عمر الأول (الفاروق) أو عمر الثاني (ابن عبد العزيز) ، بل لو عاش في هذا العصر الذي نعيش نحن فيه ، لألقم حجراً ، ولأخذ على يديه وعلى لسانه ، ولنال جزاء ما قدمت يداه ، وما اجترحه لسانه ، وإن نعجب فمن يحبون التشبه بالماضين وما يتشبهون بهم إلا في هذه القحة ، وقد تغير الزمان ودار الفلك .

ولقد كان يصح في عصر جرير ، أن ينشأ مثل جرير وألاّ يبالي بقذف المحصنات ونهش أعراض الناس وربما عد ذلك ضرباً من ضروب العبقرية ، ولكنها عبقرية في القحة على كل حال .

على أن الأحكام نسبية ، وما صح في عصر قد لا يصح في سواه ، وربما نظر الناس إلى هذه البذاءة التي كان يتشدق بها جرير والأخطل والفرزدق ، نظراً حسناً حين كانوا لا يأنفون سماع أشباه ذلك ، ولكن هذا العصر الذي نعيش نحن فيه ، لا يستسيغه ولا نستسيغ شيئاً منه ومن هنا يصدف الشعراء النبلاء في هذا العصر عن التهاجي القبيح ، ولن ترى شاعراً يتقيّل طريقة المتقدمين

إلا من كان يعيش بروحه في غير هذا العصر ، وإلا من كان خيالاً من خيالات القرون الغابرة .

فإذا ساءنا أن نجد شيئاً من أشباه ذلك في هذا العصر الذي نعيش فيه ، فربما حسن للماضين أن ينعموا به ، ومن هنا لا ترانا نحب هذه السلاطة في اللسان والفكر عند جرير ، ولا نعجب بها ، وإن أحبها وأعجب بها من قبلنا وننكر عليه تحديه وجبهه وما إليه :

« قالوا إن جريراً ، قدم المدينة فحُشد له جماعة ممن يفقهون ، فبينما هم عنده ذات يوم ، إذ قام لحاجتـه وجاء الأحوص الشاعر، فقال : أين هذا ؟ فقالوا : قام آنفاً ، ما تريد منه ؟ قال: أخزيه والله إنّ الفرزدق لأشعر منه وأشرف ، فأقبل جرير ، وقال مَن الرجل ؟ قالوا : الأحوص بن محمد ، فقال هـذا الخبيث بن الطيب ؟ ثم أقبل عليه فقال قد قلت :

يقر بعيني ما يقَر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرت

فإنه يقر بعينها ... أفيقر بعينك ؟ ... فانصرف الأحوص وأرسل إليه بتمر وفاكهة .

وأقبل الجماعة يسألون جريراً وهو في مؤخر البيت وأشعب عند الباب ، فجاء أشعب يسأله ، فقال له جرير : والله إنك لأقبحهم

وجهاً ... ولكني أراك أطولهم حسباً ... وقد أبرمتني فقال: أنا والله أنفعهم لك، فانتبه جرير وقال: كيف قال إني لأملح شعرك؟ واندفع يغنيه:

يا أخت ناجية السلام عليكم   قبل الفراق وقبل لوم العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم   يوم الفراق فعلت مالم أعلم

فأدناه جرير منه حتى ألصق ركبته بركبته ثم قال أجل والله إنك لأنفعهم لي، وأحسنهم ترتيباً لشعري، أعد، فأعاده عليه وجرير يبكي (؟) حتى اخضلت لحيته، ثم وهب أشعب دراهم كانت معه، وكساه حلة من حلل الملوك، وكان يرسل إليه طول مقامه بالمدينة فيغنيه أشعب، ويعطيه جرير شعره فيغني فيه. وكان أشعب من أحسن الناس صوتاً.»

فأنت ترى مما مر بك: جبهه للناس عن غير معرفة، وربما كان من يجبهه من أحسن الناس إليه.

وترى تحديه لأعدائه، حين أذن الوليد بن عبد الملك للناس فدخلوا واطمأنوا في مجالسهم، ثم دخل جرير فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ابن الرقاع المتفرقة أؤلف بعضها إلى بعض[1].

(١) مرت القصة آنفاً.

وفي هذه قسط من القحة والتحدي غير قليل .

ولم يقتصر أمره على هذا ، فقد رأى أن أمراء عصره يغرون بين الشعراء ، فاستفاد ذلك ، وأخذ يعين على الشر ، لا يعين طرفاً واحداً ، وإنما يعين الطرفين : يوقدها ناراً مستعرة من ناحية ، ثم يعود إلى الناحية الثانية فيوقدها أيضاً ، وهذا من غرائب طبائع الشرّيرين .

قالوا : إن ذا الرّمةوهشاماً المرئي، كانا يتهاجيان لأن ذا الرمة نزل بقرية لبني امرئ القيس فلم يقروه ، فخرج هاجياً ، فنال منه هشام برجز

فقال الفرزدق لذي الرّمة : ألهاك البكاء في الديار وهذا العبد يرجز بك ؟ (يعني هشاماً المرئي) فنال ذو الرمة منه .

وقال جرير لهشام : عليك العبد (يعني ذا الرمة وكان يكرهه لميله إلى الفرزدق)[1]

قال فما أصنع يا أبا حزرة وهو يقول القصيد وأنا أقول الرجز والرجز لا يقوم للقصيد ، فلو رفدتني !

فأعانه جرير بأبيات فلما سمعها ذو الرمة قال كذب العبد السوء

---

(١) قيل كان ذو الرمة ممن أعان على جرير ولم يكن يصحر له (يظهر له) فقال فيه جرير : أقول نصاحة لبني عدي ثيابكم ونضح دم القتيل

ليس هذا الكلام له ، هذا كلام نجديّ حنظليّ . هذا كلام ابن الأتان .

ثم لقي ذو الرمة جريراً فقال له : تعصبت للمرئي وأنا خالك .. ؟ قال : حين قلتُ ماذا ؟ قال: حين قلتَ له أن يقول لي :

عجبت لرحل من عدي مشمس ... وفي أي يوم لم تشمس رحالها

فقال له جرير: لا بل ألهاك البكاء في دار مية حتى أبيحت محارمك .

ثم حدثه جرير بما بلغه من ميل ذي الرمة عليه مع الفرزدق فجعل ذو الرمة يعتذر إليه ويحلف له .

فقال جرير اذهب الآن وقل للمرئي :

يعد الناسبون إلى تميم ... بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل سعد ... وعَمراً ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بينها المرئي لغواً ... كما ألغيت في الدية الحُوارا

فقال ذو الرمة قصيدته التي أولها :

نبت عيناك عن طلل بحزوى ... عفته الريح وامتنح القطارا

وألحق فيها الأبيات التي قالها جرير ، فلما أنشدها وسمعها المرئي جعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بويله وحربه ويقول مالي ولجرير فقيل له وأين جرير منك ... هذا رجل يهاجيك

وتهاجيه فقال هيهات لا والله ما يحسن ذو الرمة أن يقول :

ويذهب بينها المرئي لغواً كما ألغيت في الدية الحوارا[1]

هذا والله كلام جرير ما تعداه قط . . . !

ومر الفرزدق بذي الرمة وهو ينشد هذه القصيدة ، فلما أنشد الأبيات الثلاثة ، قال له الفرزدق : أعد يا غيلان فأعاد ؛ فقال له : أأنت تقول هذا ؟ قال : نعم يا أبا فراس . قال : كذب فوك والله لقد نحلكها أشد لحيين منك هذا شعر ابن الأتان .

وجاء المرئيون إلى جرير فقالوا يا أبا حزرة قد استعلى علينا ذو الرمة فأعنا على عادتك الجميلة .

فقال — وقد وصل إلى مبتغاه من إخضاع ذي الرمة — : « هيهات قد والله ظلمت خالي لكم مرة وجاءني فاعتذر وحلف وما كنت لأعينكم عليه بعدها » .

ولو أن خاله لم يعتذر إليه لظل يمد هشاماً وقومه حتى يخضع إليه النافر ، ويظهر أن نفس جرير لم تطب على ذي الرمة حتى أنه حينما كان ذو الرمة ينشد المهاجر بن عبد الله في اليمامة وجرير يسمع ، قال المهاجر كيف ترى ؟ قال جرير : لقد قال

(١) الحوار ولد الناقة ولا يُعد في الديات شرعاً .

وما أنعم، فغضب ذو الرمة ونهض وهو يقول (أَنا أبو الحرث واسمي غيلان) فنهض جرير وتحدث عن نفسه بما فيه الغناء، وصورها تصويراً هو الغاية فقال :

إني امرؤ خلقت شَكساً أَشوسا
إن تضرساني تضرسا مضرّسا
قد لبس الدهر وأبقى ملبسا
من شاء من نار الجحيم اقتبسا

فهدأ ذو الرمة وحاد عنه وجلس صامتاً لا يجيب .

وإذا أضفت إلى هذا الوصف ما أُجاب به أبا عمرو حين سأله علامَ تقذف المحصنات من كذا وكذا ؟ فقال : « إنهم يبدؤونني ثم لا أعفو » .

إذا أُضفت إلى ذلك الوصف هذا الجواب، عرفت أي حقد في نفسه على الناس، فهو شكِس لا يعفو، وشرس كأنه نار الجحيم، وبيّن بعد هذا أَن من يجبه الناس على غير معرفة، ومن يعين على الشر بشر، ومن يصف نفسه بالشكاسة والشراسة، إن من يكون هذا شأنه، لا يفتر عن تتبع أَعدائه، أو تهديد من تسول له النفس أَن يميل لأعدائه .

فقد قالوا : إن الفرزدق أتى مجلس بني الهجيم في مسجدهم فأنشدهم، وبلغ ذلك جريراً ، فأتاهم في الغد لينشدهم ، فقال له شيخ منهم : يا هذا اتق الله فإن هذا المسجد إنما بني لذكر الله والصلاة ؛ فقال جرير : أقررتم للفرزدق ومنعتموني وخرج مغضباً يقول :

إن الهجيم قبيلة ملعونة حص اللحي متشابهو الألوان

وبينما كان جرير بقباء ينشد قوله :

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

طلع الأحوص ، فلما نظر إليه قطع الشعر وقال بصوت عالٍ :

عوى الشعراء بعضهم لبعض عليّ فقد أصابهم انتقام
إذا أرسلت قافية شروداً رأوا أخرى تحرق فاستداموا
فمصطلم على المسامع أو خصي وآخر عظم هامته حُطام

ثم عاد إلى قصيدته الأولى من حيث قطع ، فسئل عن ذلك فقال : نهيت الأحوص أن يعين عليّ الفرزدق .

ثم قال : أنا والله ما تعوذت من شاعر قط ولولا حقكم ما تعوذت منه . ولا شك أن رجلاً يقول لراعي الإبل : « لقد أقمت في هذا المصر (البصرة) سبع سنين لا همّ لي إلا أن أسبّ من سبّ قومي والآن أشتم من شتمهم » إن من يقول هذا وغيره في وصف نفسه لا يتعوذ

من شاعر ولا يهاب ، وأهون شيء لديه الشعراء !...

ولكن الرهبة قد تدركه في بعض الأحيان حينما ينفرد في الصحراء ، فربما رمى به السير إلى قوم لهم فيه رغبة لترة ، فإذا أصابه الدهر بهذا ، أثنى ومدح ندماً كما جرى له حينما سقط على أبيات من ضبة نخافهم لسوء أثره فيهم فمدحهم وقال إن قلبه غير قالٍ لهم طول الحياة فلا خوف عليه فقالوا له : أجل يا أبا حزرة لا خوف عليك

وما ندري صحة هذه القصة وقد رواها ابن سلام عن أبي يحيى (الضبي) .

ويكاد يشبه هذا ما ساوره من الندم حين نزل بضيعة في الشام ، على قصر مشيد حسن ، وقد سأل عن صاحب القصر فقيل له نميري فذكر ما كان بينه وبين نمير فقال هذا شآمي وأنا بدوي لا يعرفني .

واستضافه ، فعرفه صاحب القصر ، وجاءت ابنة له صغيرة فسألته أمن وبر هي ؟ (يعرّض بقصيدته التي هجا بها بني نمير) ، فقال جرير يرحمك الله إن الشاعر ليقول ووالله لقد ساءني ما قلته ولكن صاحبكم (راعي الإبل) بدأني فانتصرت ، وذهب يعتذر منه فقال : دع ذا عنك يا أبا حزرة فوالله مالك عندي إلا ما تحب .

ثم أحسن اليه وزوّده وكساه . قال جرير : فانصرفت وأنا أَندم الناس على ما سلف مني لقومه .

* * *

هذه هي الصورة الواضحة تأخذها من أخبار جرير ومن أَشعاره عن نفسه وطبيعته ولكنك تضطر إلى أَن تضع لجانبها صورة ثانية فيها شيء من الحلم والتغاضي إذ يقول :

أني امرؤ يذب عن حريمي   حلمي وتركي الجهل للئيم
والحلم أَحمى من يد الظلوم

وليس بصحيح أَنه يذب عن حريمه بحلمه ويترك الجهل للئيم إلا أَنه ربما تغاضى وصفح حينما لا يرى في الحلم منقصة ولا غضاضة ، والمرء مهما جهل فقد يحلم ، كتغاضيه عن بشار بن برد . فقد تعرض لجرير وهجاه ، وبشار يومئذ صغير ناشيء ، وجرير مع العيوق ، فأراد أن يتعلق به ليرد عليه ، ولكن شاعرنا لم يكترث له ولو أجابه لجعل له قيمة كبرى من مستهل حياته ، وذلك ما كان يطمع فيه بشار ، وهو ما تحدث به حينما شب واكتهل .

*

أثر هجائه

سلف لنا القول أن جريراً كان مهيب الجانب ، مخيف اللسان ، لهجائه أثر رهيب في الأفراد وفي القبائل .

فأما تأثيره في الأفراد فقد بلغ من قوته أن فرّق بين الزوج وزوجه :

قيل إن عمر بن يزيد بن عمير الأسدي كان يتعصب للفرزدق على جرير ، فتزوج من بني عدس بن زيد فقال جرير :

نكحت إلى بني عدس بن زيد فقد هجّنت خيلهم العرابا
أتنسى يوم مسكن إذ تنادي وقد أخطأت بالقدم الركابا

من قصيدة له ؛

فاجتمع أهل الفتاة على عمر بن يزيد ولم يزالوا به حتى خلعوا المرأة منه .

وتزوج الفرزدق حدراء بنت زيق على حكم أبيها ، فاحتكم مائة من الإبل فدخل على الحجاج يسأله ذلك فعذله ، وقال له أتتزوج امرأة على حكم أبيها ؟ فقال عنبسة بن سعيد — وأراد نفعه —

إنما هي إبل الصدقة ، فأمر له الحجاج بها ، فوثب جرير يقول :

يازيق قد كنت من شيبان في حسب

يازيق ويحك من أنكحت يازيق

وهي أبيــات كثيرة فلم يجبه الفرزدق ، وعاد جرير إلى استثارة آل حدراء على الفرزدق ، وكرهت بنو شيبان أن يهتك أعراضهم ، فلما أراد الفرزدق نقل حدراء اعتلوا عليه ، وقالوا له إنها ماتت وظفر جرير فقال :

فأقسم ما ماتت ولكنما التوى بحدراء قوم لم يروك لها أهلا

وزعموا أن الفرزدق قدم على المهاجر بن عبد الله الكلابي ، والي اليمامة ، وأراد ألا يظهر لجرير ، فعلم جرير به وهجاه ببيتين ففر من ساعته وقال : والله لا أقيم باليمامة ولا أرزوءه ثم رحل لوقته .

ولعل هذه القصة مما ليس له نصيب من الصحة ، لأن الفرزدق كان لا يهاب جانب جرير ، وخاصة إذا كان في كنف والي اليمامة . وقد قيل : إن جريراً إنما عظم في عيون البعض لأنه وقف للفرزدق ! .

هذا شيء من تأثيره في الأفراد ، وأما تأثيره في الجماعات والقبائل فيقوم على أنه لم يهج قوماً إلا فضحهم وهدم بناءهم ، ووضع من شرفهم — كما كان يفعل بالأفراد — إلا بني طهية فقد كانوا

كما قال لابنه جحناء — رعاء غنم فلم — يجد لهم شيئاً ينالهم به ، ولا بناء يهدمه ويسيء إليهم فيه .

وحدث الرواة أن جريراً نزل بقرية يقال لها : عزولاء ، فحط رحله على باب رئيسها الأخرم بن أخضر الوائلي فبعث الصبيان براحلته ، فتحوّل عن هذه القرية إلى أخرى ونزل بباب رجل يقال له عبد الله بن بدر السحيمي ، فنحر له وأكرمه ، وجاء الأخرم فرأى آثار رحل جرير ، فقال لأهله ما هذا المناخ الذي أرى ؟ قالوا : إنسان يقال له جرير بن الخطفى أناخ ، فبعث براحلته الصبيان فتحول إلى عبد الله ، فذهب فنظر إليه وقد نحر له فنادى يا سوء صباح بني مازن ، وكان مطاعاً في قومه مسوّداً ، فلم يترك بكراً ولا ثيباً إلا صاح بهن ، حتى أنزلهن أكمة ، فقال إذا قلت لكن قد جاء فانهضن إليه ، وصحن والطمن الوجوه وقلن يا سوء صباح نسوة بني مازن ، وتعوذن به ففعلن ذلك ، وكان جرير قد بدأ فهجاهم ببيتين .

فقال لهن جرير : أما البيتان فقد مضيا ، ولكن وهبت لكن ما سوى ذلك .

ونحر له ابن الأخوم ، وأكرمه وأقام جرير عنده يوماً .

وتحدث الرواة أن جمرة العرب الباقية ، أخمدها بقصيدته الدامغة التي فضحت بني نُمير ، وإن لها لحديثًا طريفًا نسوقه إليك قصة تتبين فيها العصر الذي كان يعيش فيه شاعرنا ، وألوان الحياة الأدبية التي كان يحياها القوم الأولون .



*

جرير وبنو نمير

« يا أَبا جندل ؛ إنك شيخ مضر وشاعرها ، وقد أَتى بي إِليك أني وابن عمي نستبّ صباحَ مساء ، وما عليك غلبة المغلوب ، ولا لك غلبة الغالب فإما أن تدعني أنا وصاحبي ، ويكفيك أن تقول : كلاهما شاعر كريم إذا ذكرنا ، ولا تحتمل مني ولا منه لائمة وإمّا أن يكون وجه منك إلي أن تغلبني عليه لمدحي قومك ، وذبي عنهم وحطيّ في حبلهم » .

قال جرير ذلك للراعي عبيد بن حصين أحد بني نمير بعد أن بلغه خبرٌ أقامة وأقعده وهو : أن عرادة النميري نديم الفرزدق قد اتخذ طعامًا وشراباً ، ودعا إليه الراعي حين قدومه إلى البصرة ، وجلس يؤاكله ويشاربه ، فلما أخذت الكأس منهما قال عرادة النميري : يا أَبا جندل ، إنك من شعراء الناس ، أَمرك ضخم بينهم ، فقل شعراً تفضل به الفرزدق على جرير ، فامتنع الراعي بادئ الأمر غير أن صاحبه ما زال يزين له ذلك حتى قال عبيد :

يا صاحبيَّ دنا الأُصيل فسيرا   غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فطار عرادة لذلك فرحاً ، وعدا بهذا الشعر إلى الفرزدق وأنشده إياه ، فترامى الخبر بعد أيام إلى جرير ، فتحسب أنه مغلَّب للفرزدق وقد شهد بذلك عبيد شاعر مضر وذو سنها .

لهذا الخبر قال جرير قوله لأبي جندل فقال له هذا : « صدقت أنا لا أبعدك من خير ميعادك وميعاد قومك ، غداً فأعتذر عما قلت » .

* * *

بكر جرير ثاني الأيام إلى حلقة قومه بني يربوع ، وقد قص عليهم الخبر فما انتظمت حلقتهم بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ، حتى وقف عليهم رجل من أسد ، له علم بالأمر فقال له بنو يربوع : « اذهب إلى حلقة بني نُمير ، فتعرض لراعي الإبل واذكر مجلسنا لعله نسي الذي قاله لنا بالأمس . » فأتاه فقال : « يا أبا جندل هذه بنو يربوع تنضح جباههم العرق ، ينتظرون ميعادك اليوم » فذكر الراعي ذلك ، فقام ليعتذر ولكن قومه أدركوه وتمسكوا بأسافل ثوبه وقالوا : اجلس فوالله لأن ينضح قبرك غدوة في الجبانة أحب إلينا من أن يراك الناس تعتذر إلى هذه الكلاب . فسمع الرجل ذلك فنقلة إلى بني يربوع .

ثار ثائر جرير ، وجن جنونه ، وجعل القوم يكلمونه فلا يجيب ، وترك المجلس غضبانَ ، وانتظر أبا جندل في الطريق ليراه ويزجره

وإنه لهنالك إذ ألفى عبيداً راكباً بغلته فتعرض له قائلاً :

« يا أبا جندل إني قد أقمت بهذا المصر سبع سنين لا أكسب أهلي دنيا ولا آخرة ، إلا أن أسب من سبهم ، فلا يقع بيني وبين هذا الرجل — يعني الفرزدق — منك ما أكره » ثم أردف ذلك بقوله « أنت شيخ مضر وشاعرهم ، وقولك مسموع فيهم فمهلاً مهلاً . » قال أبو جندل وكان عاقلاً « معاذ الله أن أفعل ما تكره » فقال جرير « ومع ذلك فأنت ترفع الفرزدق وقومه حتى لو تقدر أن تجعلهم في السماء لفعلت ، وتقع في بني يربوع حتى تصير إليّ في رحلي ! ».

وإنهما لفي ذلك الحديث وقد وضع جرير شماله على بغلة أبي جندل إذ أقبل جندل راكباً بغلته ، فسأل عن محدث أبيه فلما علمه رفع كرمانية في يده وضرب بها عجز بغلة أبيه قائلاً « لا أراك يا أبتاه واقفاً على كلب من بني كليب . كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً . » فاندفعت البغلة مسرعة » وقد رمت جريراً فسقطت قلنسوته سقطة مشؤومة وتبعها هو

إلى الأرض فقال وهو ينظف قلنسوته واقفاً ينظر إليهما وقد أوشكا أن يتواريا في السواد : ليعلمن شأن أبيه وقومه بعد حين.

* * *

لجرير راوية هو مولى لبني كليب كان يبيع الرطب بالبصرة وكان يجمع أشعار جرير ليحفظها ويرويها له، وقد تمكن حب جرير من فؤاد (حسين) هذا راويته، فذهب جرير إليه وأعلمه بما جرى وقال إني آتيك الليلة فأعد لي شواءاً وفراشاً ونبيذاً محشفاً.

ثم تركه جرير وقصد الشوارع يطوفها ونفسه وثابة لا يقدر على ضبطها، حتى إذا أقبل الليل بجيوشه ولى وجهه شطر البيت وفي خواطره ما لو كان بأُمة جامدة لحركها، ودخل على راويته وقال: هل هيأت كل شيء ؟ قال: نعم، وعلام عولت الآن ؟ قال أما والله لأوقرن رواحله بما يثقلها خزياً ينقلب به إلى أهله ولتكونن قصيدتي فيهم دماغة فاضحة تسير مع الدهر وتطويه، ولأُلحقن بني نمير بجمرتي العرب الخامدتين : بنى الحارث بن كعب لمحالفتها مذحج، وبني ضبة لمحالفتها الرباب.

وبعد هنيهة صمت قال « هلم عشاءك » فأحضر له العشاء، وحانت صلاة العشاء فقام وصلاها ثم قال : « ارفعوا لي باطية من نبيذ

وأَسرجوا لي » ففعلوا ، فشرب أَقداحاً ثم قال هات دواة و كتفاً ، فأتاه بما أَراد فجعل جرير يهمهم ويحبو عرياناً ويقول اكتب ، وابتدأَ بقصيدته :

أقلّي اللّوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

وبينا هو في تمتمته سمعت صوته عجوز في الدار فاطلعت من الدرجة حتى نظرت إليه ، فإذا هو في تلك الحال يحبو على الفراش عريان لما هو فيه ، فانحدرت وقد خشيت مغبة هـذا الاطلاع وقالت « ضيفكم مجنون رأيت منه كذا و كذا » فقالوا « اذهبي لطيتك نحن أَعلم به وبما يمارس » .

وأَدركه السحر وهو على تلك الحال حتى وصل إلى شطره الذي يقول فيه .

فغض الطرف إنك من نُمَيرٍ

فازدادت تمتمته ونشوته لما شرب ، واستعصى عليه الشطر الثاني فقال لراويته ويحك أطفيءْ السراج ، ثم تناول منديلاً كبيراً غطى رأسه زيادة في طلب الخلوة ، وفتر برهة طويلة والراوية ينظره حتى عيل صبره ، و كان للكرى عليه سلطان فاسترسل إليه ، ومـا زال كذلك حتى ضرب صدر جرير نائماً فوثب جرير حتى أصاب

السقف رأسه فانتبه الراوية مذعوراً وإذا بجرير يكبر ويصيح أخزيتُه ورب الكعبة اكتب :

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

غضضتُه وقدّمتُ إخوته عليه، والله لايفلح نميري بعدها أبداً .

وانقضى معظم الليل وجرير يهذب قصيدته ويزيد فيها حتى خرجت آيةَ في الشعر ومصيبة في الهجاء، ثم أطفأ سراجه ونام وهو يقول : والله لقد أخزيتهم آخر الدهر، فلن يرفعوا رأساً بعدها إلا نكس بهذا البيت وجعل يردد قوله :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

***

أصبح جرير على جمر الغضا، وما علم أن الناس قد أخذوا مجالسهم في المربد، وفيهم أبو جندل وابنه والفرزدق، حتى دعا بدهن فادّهن وكف رأسه، وكان حسن الشَّعر ثم قال: ياغلام أسرج لي ؛ فأسرج له حصاناً ثم قصد مجلسهم يستحث حصانه فبلغ المكان فقال بصوت عال سمعه من كان هناك : ياغلام — دون تحية أو سلام — قل لعبيد أَبعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق ؟ أَما والذي نفس جرير في يده لترجعنَّ إليهنّ بمير يسوؤهن ولا يسرهن ؛ أقسمت قسماً

بالله لا أحنث فيه ، إن لكم ميعاد سوء وذلة ، ولأوقرن رواحلكم بما يثقلها خزياً وعاراً . ولم يكد يقول الكلمة الأولى حتى أشرابت الأعناق إليه على أنه قصد صاحباً له قريباً في مجلسه من أبي جندل فأتاه وأخذ بتلا بيب راعي الإبل وقال: إنكم لن تعودوا شم الأنوف جحاجح بين العرب بعد الساعة ، ثم تركه وقال منشداً قصيدته.

أقلّي اللّوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

أما الفرزدق فقد كان يصغي إلى جرير لعلمه أنه سيقذع أيما إقذاع ، وانطلق جرير يقول والناس آذان تصغى إليه فلما بلغ قوله .

أجندل ما تقول بنو نمير إذا ماالـ . . . في أ . . . أبيك غابا

قال يقولون شراً أتيتنا فبئس والله ما كسبنا قومنا .

ولما انتهى إلى قوله :

فغض الطرف إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

أقبل الفرزدق على راويتـــه فقال « غضه والله فلا يجيبه ولا يفلح بعدها أبداً »وقال عبيد« أخزيتهم ، أخزاك الله ، آخر الدهر» .

وحينما بلغ قوله :

بها برص بجانب اسكتيها

وضع الفرزدق يده على عنفقته يسترها عن عيني جرير الذي كان يرعاه وحركاته فأتم جرير قوله :

بها برص بجانب اسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا

ولعله استعاض عن شطر لاندري ما هو بشطر قصد به إلى الفرزدق ارتجالاً ، وعند ذلك نكس الفرزدق رأسه والتفت لراويته يقول اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ولكن طمعت الإبابة فغطيت وجهي ، فما أغناني ذلك شيئاً ، فأنا الذي جنيت على نفسي الساعة لأني نبهته إليها ، ألم أقل لك إن شيطاننا واحد ، ثم صمت وظل صامتاً حتى إذا انتهت القصيدة ذهب لا يلوي على شيء — أما راعي الإبل فقد غض الطرف — كما شاء جرير — وتورد وجهه وصد هو وابنه حتى إذا فرغ جرير ذهب عبيد إلى قومه يقول « — ركابكم ركابكم فليس لكم هنا مقام فضحكم والله جرير » .

فلم ير الناظر ساعتئذ إلا وجوها ممتقعة الألوان ، وإلا ضوضاء الرحيل وقالوا له هذا شؤمك وشؤم ابنك علينا ، قال كلا ياقوم لست شؤماً عليكم وليس ابني كذلك وإنما هو جرير شؤم الناس أجمعين ، فقال بعضهم لأبي جندل ما الذي دعاك إلى التعرض له

وللفرزدق ؟ أَلا تعلم أن هؤلاء الثلاثة (يعني جريراً والفرزدق والأَخطل) في حرب عوان وأَنه لم يبق أَحد من الشعراء في عصرهم إلا تعرض لهم ؟ فافتضح كما افتضحنا وسقط وبقوا يتصاولون ؛ قال:

خلوا سبيلي ياقوم إنه القضاء ، وهل يغني حذر عند قدر ؟

وما زال وجل شعراء بني نمير يزداد مع الأَيام حتى تجشم بعضهم الرد على جرير خشية أن يقال فيهم أكثر مما قيل ولكن تلك الأَشعار لم تنفع نميراً ولا أَضرت بجرير .

* * *

أَدالت هذه القصيدة من عز بني نمير من عامر بن صعصعة ، وأَصبح كل منهم ينتسب عامرياً بعد أن كان إذا سئل ممن الرجل ؟ قال من نمير ... أَلا ترى ... ونخم لفظه ومد به صوته .

أَما أَبو جندل فكان عندهم رمز الشؤم هو وابنه وأما جرير فكان عندهم ملتقى السباب والشتائم إلى يوم الدين وقد كابد بنو نمير أشد ما يكابد ذليل بعد عز ، فقد قيل : إن مولى الباهلة — كان يرد سوق البصرة ممتاراً والبصرة حلبة العرب في تلك الأُيام . وكان بعض بني نمير يصيح به ياجوذاب باهلة فيكابد من ذلك أَلماً جسيماً حتى ضجر منهم فقص الخبر على مواليه فقالوا له إذا نبزوك فقل لهم :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ومر بهم ذات يوم فنبزوه فأراد البيت فاستعصى عليه ونسيه فقال النابزة غمّض وإلا جاءك ما تكره . فعضوا أصابعهم ندماً وكفوا عنه ولم يعرضوا له ولا لسواه بعدها .

وحكي أن امرأة مرت ببعض مجالس بني نمير فأداموا النظر إليها فقالت قبحكم الله يا بني نمير ما قبلتم قول الله عز وجل : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولا قول الشاعر :

فغض الطرف ...... (البيت)

وانتشرت قصتهم وفضيحتهم بين العرب حتى أصبحت الإشارة إليها تغني فقد قيل : إن شريك بن عبد الله النميري ساير يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري فبرزت بغلة شريك فقال له يزيد : غض من لجامها فقال إنها مكتوبة أصلح الله الأمير فضحك وقال: ما ذهبت حيث أردت .

وإنما عرض بقوله غض من لجامها بقول جرير (فغض الطرف إنك من نمير ... البيت) فعرض له شريك بقول ابن دارة ببني فزراة إذ كانوا يرمون بإتيان الإبل .

لا تأمنن فزارياً خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار

*

الشعراء المتألبون

« قالوا : إن رجلاً قال لجرير من أَشعر الناس ؟ قال : قم حتى أعرفك الجواب فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطيه وقدأخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج يا أبتِ .

فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته فقال : ألا ترى هذا ؟ قال الرجل : نعم قال : أَو تعرفه ؟ قال لا قال هذا أَبي ، أفتدري لِمَ كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال لا، قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن ـ ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً »

وسواءٌ أصح هذا العدد من الشعراء المهاجين أم لم يصح فإن الشعراء الذين تعرضوا له كانوا من الكثرة بحيث لا يقف لهم إلا عبقري مطبوع ، أو فحل أَكول ، — على رأي المتقدمين — ولقد عرفت أن أَول ما كان من شأنه في التهاجي أَن شتم غسان بن هذيل إذ كان يشتم قوم جرير فأعان غسان شاعرٌ يدعى البعيث وفضّل غسانَ علىجرير فالتفت جرير الى البعيث فإذا الفرزدق يعين البعيث

فيلتفت إليه جرير وينصرف الفرزدق الى جرير فيستعر بينهما الهجاء

ومال الأخطل إلى الفرزدق برشوة من خمر و كسوة كما قيل فأخذ بهجائه جرير دون أن ينسى غيره فكان يقول :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وصغا البعيث جدعت أنف الأخطل

وتعرض عمرو بن لجأ لهذه الخصومة المستعرة ، وقيل إنه غير بيتاً لجرير إذ يقول :

لقومي أحمى للحقيقه منكمُ وأضرب للجبار والنقع ساطع
وأوثق عند المرهفات عشية لحاقاً إذا ما جرد السيف لامع

فزعم أن جريراً قال :

وأوثق عند المردفات عشية لحاقاً إذا ماجرد السيف لامع

وطال أمر هذه المهاجاة بينهما ، وكان عمرو بن لجأ دون جرير فأنف الفرزدق أن يتطاول ابن لجأ على خصمه وابن عمه فقال لعمر بن عطية أخي جرير : قل لأخيك ائت التيمي من عل كما أصنع بك وقال الفرزدق لابن لجأ :

وما أنت إن قرما تميم تساميا أخا التيم إلا كالوشيظة في العظم
فلو كنت مولى العز أو في ظلاله ظلمت ولكن لايدي لك في الظلم

فقال له ابن لجأ :

كذبت أنا القرم الذى دق مالكاً وأفناء يربوع وما انت بالقرم

فأعرض عنه الفرزدق احتقاراً لشأنه .

ومشت رجال بين جرير وابن لجأ وما زالوا بهما حتى أصلحوا بينهما بالعهود والمواثيق المغلظة إلا يعودا ، فكان جرير يسل الواحدة بعد الواحدة في ابن لجأ فيقول له ابن لجأ : والله ما نقضت هـذه ولا سمعتها فيقول جرير هذه كانت قبل الصلح !

أما الرجال الذين سعوا بالصلح بينهما فمن تَيْم — كما نرجح — لا من تميم — كما في طبعة الأغاني — لأن رجال تميم كانت تستطيع أن تصلح بين جرير والفرزدق وهما من أبناء الأعمام ، ولم تكن تميم — القبيلة النبيلة — بالموضع الذي ترهب فيه جانب ابن لجأ وقـد رأت قرميها يملآن الدنيا سباباً وشتيمة ولا قيمة لابن لجأ أمامها .

وكان قد أعان ابن لجأ البلتع المستنير بن سبرة العنبري فاحترق بنار جرير ، واحتدم الهجاء بين سراقة بن مرداس البارقي وبين شاعرنا إكراماً للأمير بشر بن مروان الذي كان يغري بين الشعراء .

وأَعان عبيد (راعي الابل) الفرزدقَ فكان من شأنه ماتعلم ، ونطلع الى الشهره على حساب جرير العباسُ بن يزيد الكندي فتركه شاعرنا خمس سنين ، لم يلتفت فيها اليه ، ثم جاء جرير قوم العباس وطلب اليهم أن يكفوه فامتنعوا وهددوا جريراً فهجاه ·

وجاء جفنة الهزاني يطلب كسوة جرير التي أهداه إياها الوليد فأبى جرير وثار بينهما ما ثار ، ولعل الذي أغراه المرار بن منقذ ، وكان قد أَعان الفرزدق فصلى بنارجرير ، وكذلك كان الأشهب بن رميلة ، قد اعان الفرزدق فوسمه جرير ، وهجا حكيم بن معية الذي اعان غسان السليطي ووسمه بميسمه ونال من الدلهمس الذي اعان الفرزدق ثم اعتذر لقومه فلم يعذروه وانشدوه شعراً في هجائه ·

وهجا هبيرة بن الصلت الربعي والطهوى لأنهما كانا يرويان شعر الفرزدق ووصم علفة والسرندى من بني الرباب لإعانتهما ابن لجأ · وهزئ من عقبه بن السميع لأنه نذر دمه ·

وجاءه شحمة الأعور النبهاني يسأله واشتط ، ولم يكن عند جرير مال فتهاجيا ·

وكان ذو الرمة يميل الى الفرزدق ثم اعتذر · ونال عدي بن الرقاع من أذى جرير شيئ كثير

*

بخله

حينما تحتدم العداوة بين الأفراد ، يختلقون ما لم يكن ، ويصم كل امرئ عدوه بما يمتد إليه خياله وهواه ؛ فهم ينظرون في الخصال التي يمدح عليها المرء ، فينالون ويضيفون إلى الحقيقة ما يغير معالمها من البطل ، وقديماً أغري الناس بتنقص أعدائهم وبثلب مناوئيهم .

فإذا كان الشأن كذلك في سائر الخلق ، فما تقول في العباقرة الذين لا يتفق الناس عليهم ، بالخير أو بالشر ، وما تقول فيمن ينصب نفسه لعداء الناس ، أو ينصبه الناس غرضاً لأحقادهم . إن التزيد والتنقص في أشباه ذلك لكثير ، وإذا كان الأعداء لايتحرجون في وصم أعدائهم بما يشين فإن المريدين والمشايعين لايفتؤون عن ذكر محاسن من يشايعون ، ولا يجدون ما يقابل تلك الإساءات إلا الإكثار من المحاسن ، باطلة كانت أم حقاً .

ومن هنا نرى الحقائق القديمة — والحديثة أيضاً — قد اكتنفها طرف من النقص ، وطرف من الزيادة ، وأصبحت خصال الرجال المترجمين

— على الأغلب — ضائعةً بين تشيع المتشيعين ، وعداوة المعادين . هؤلاء ينتقصون ويثلبون ، وأولئك يطرون ويعجبون ، وأنت بينهما حائر متلوِّم .

وليس المخرج من أشباه هذا بسهل واضح ، وإن كان يجدي في البحث أن ننظر في النصوص ونقارن بينها وأن نمتحن الرواة على محك العلم والثقة ، فربما وضح الحق ، واستبان للعين البصيرة من معرفة الرواة ، ودراسة النص ومقارنته بسواه .

وأمامنا اليوم قصة بخل شاعرنا جرير ، ونصارحك انها إلى الاختلاق أقرب — كما تبين لنا — وأن بخله يكاد يشابه بخل المتنبي ، وقد وصم أبو الطيب قديماً بما هو براء منه لأسباب ليس هنا موردها وقد ذكرها المتأخرون من الباحثين .

لم يكن جرير بخيلاً ، بل كان نديّ الكف ، إلى الكرم أقرب منه إلى الشح ، وإذا جاء طالب لم يتبرم وأعطاه من (من خير) ما يملك .

وكان من الطالبين من يرغب في خير ما عند جرير ، وبيّنٌ أن الرجل لايستطيع أن يمنح الطالب (خير) ما عنده للحاجة إليه ، ومن هنا نشأت فكرة بخل جرير .

جاءه جفنة الهزاني مادحاً فسأله جرير عن حاجته ، كما يسأل المثري الكبير طالباً صغيراً ، فقال له جفنة حاجتي : الحلة التي كساكها الوليد بن عبد الملك هذا العام ؛ وظاهرٌ أن طلباً كهذا ليس فيه من الأدب شيء ، أبى جفنة أن يأخذ إلا تلك الحلة ولم يرض بقول جرير له : إني لم أقف فيها بالموسم ، ولا بد من أن أقف فيها ولكني أكسوك حلة خيراً منها كسانيها الوليد عام أول ، وأزيدك معها دنانير نفقة .

هذه قحة جفنة الهزاني الذي أشاع البخل عن جرير ، وأغراه وأعانه المرار بن منقذ ، صاحب الفرزدق ومعينه على جرير وقد أعطى المرّار جفنة ناقة له يقال لها القصواء وحمله على هجاء جرير .

فهذا أول ما تهدم من بخل جرير ، ويلحق به أن شحمة الأعور النبهاني كان متزوجاً من طيء ، وجاء بزوجه فولدت في بني سليط ، فأعطوه ما رضي به ثم حملوه على أن يسأل جريراً أو أن يشتط في الطِّلبة ، لما كان بين بني سليط — رهط غسان السليطي — وبين جرير وقومه .

وكان جرير مملقاً في تلك الآونة ، وكان شحمة مشتطاً في الطلب ، وكان محمولاً على هذا الشطط بإغراء ، وبديهي بعد

هذا ألاَّ يتفق جرير وشحمة ، وبيّن أن جريراً لا يجود بالمفقود ، فارتحل شحمة يهجوه ويبخِّله ويمدح غسان السليطي وقومه .

وهذا مصدر آخر في بخل جرير تهدَّم وتقوَّض .

وربما تساءلنا عن إملاق جرير ، وقد كان يجرى عليه كل عام أَربعة آلاف درهم مع ما يتبعها من كسوة وحملان وكيف كان ينفق ذلك ليدعي لشحمة أن ليس عنده ما يجود به .

والذي يعلل هذا السؤال ويجيب عنه أن جريراً كان مُعَيّلاً [1] وله ثمانية أبناء ذكور وابنتان ، بله زوجه وأمَة كانت عنده تشكو خفة المطعم والملبس والغشيان [2] ثم إن ما كان يجري عليه انقطع زمن عمر بن عبد العزيز فلعل مقدم شحمة كان إذ ذاك .

وتوًكد بعد هذا ، أَن جريراً كان لا يبخل بما يملك ، ويدل على ذلك أن أشعب كان ينال من دراهم جرير شيئاً كثيراً ، وكان

(١) كثير العيال الذين يجب أن ينفق عليهم أنظر آخر ص ١٠ .

(٢) كانت الأمة قبله عند بني زيد وهم أهل خصب ونعمة وقيل عند رجل من بني النجار من اليمامة فقال جرير :

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب

تقول ألا تضم كضم زيد وما ضمي وليس معي شبابي

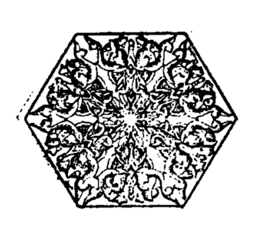
جرير طول مقامه بالمدينة حين يقدمها يكرم أشعب ويكسوه من حلل الملوك .

أضف إلى هذا أنه كان يوصي ابنه حزرة بتقيل طريقته ، والسير على منهاجه في المنطق والحزم والسبق والشرف والكرم ويقول له :

يا حزر أشبه منطقي وأجلادْ وكرياني الأمر بعد الإيراد
وعدوتي في أول الجمع العاد وحسبي عند بقايا الأزواد
وحبي الضيف إلى جنب الزاد

ولا يعقل أن يشير البخيل على ابنه بالكرم ، وقد رأينا البخلاء يألمون لإنفاق الغرباء ؛

فما أبعد البخل من طبع جرير ، وما أبعد طبعه من البخل .



*

من أساطير الأولين

في أبنا العربي القديم أساطير حاكها بعض الرواة حينما رأوا الناس مولعين بالغريب ، شغفين بالخيال البعيد ، وهي لا تمتُّ إلى الحقيقة بسبب ، ولا إلى المعقول في شيء ، إلا أنها كانت فيما يظهر مستساغة في كثير من الأذواق يتناقلها المتحدثون في لذة وشوق ، فإذا هي حديث السامر ، ومتعة النفس ، وبلغة الهوى .

ولقد نقلت إلينا كآثار تاريخية قديمة ، تدل على سذاجة المعتقدين بها ، وبساطة المتحدثين عنها .

وأحاديث الغول والعنقاء معروفة ، في الأدب القديم ، لا يقرها العقل اليوم ، ولا تقوى على الظهور أمام العلم في هذا العصر الذي استفاضت فيه مذاهب الشك والمعرفة ، توصلاً إلى العلم اليقين .

ومن أشباه تلك الأحاديث أساطير تتعلق بشاعرنا منها ما يمكن أن يعلل ، ومنها ما لا نعلله ، ويسهل علينا ردُّه .

ولقد مر بك أن جريراً هجا الراعي بقصيدته الدامغة ولما بلغ قوله :   «بها برص بجانب اسكتيها»

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته فقال : جرير « كعنفقة الفرزدق حين شابا » فقد انتبه جرير إلى عنفقة الفرزدق فقال هذا المصرع مرتجلاً ، وهو أيسر تعليل له ويؤيده قول يونس في ذلك . ويصح هذا في توارد الخواطر ولكن الذي نحدثك به ، بعد ، لا نعتقد أن له وجهاً من الصحة ، فقد زعم أبو عبيدة أن راكباً أقبل من اليمامة فمر بالفرزدق وهو جالس في المربد فقال له من أين أقبلت فقال واليمامة فقال هل رأيت ابن المراغة ؟ قال : نعم قال : فأي شيء أحدث بعدي فأنشده :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج

فقال الفرزدق : فانظر بتوضح باكر الأحداج

فأنشده الرجل : هذا هوى شغف الفؤاد مبرح

فقال الفرزدق : ونوى تقاذف غير ذات خلاج

فأنشده الرجل : إن الغراب بما كرهت لمولع

فقال الفرزدق : بنوى الأحبة دائم التشحاج

فقال الرجل هكذا والله . . أفسمعتها من غيري ؟ قال : لا

ولكن هكذا ينبغي أن يقال ، أو ما علمت أن شيطاننا واحد ثم قال أمدح بها الحجاج ؟

قال : نعم ، قال : إياه أراد .

فنحن لا نؤمن بهذا ، ولو صح ، لجاز أن يقال إن الفرزدق كان يعرف كل ما سيهجوه به جرير من النقائض ، ولجاز أن يقال هذا عن جرير ، وهو خطل وضلال .

ويلحق بهذا قصة ثانية زعموا فيها أن جريراً قال بالكوفة :

لقد قادني من حب ماوية الهوى ... وما كنت ألقى للحبية أقودا

أحب ثرى نجد وبالغور حاجة ... فغار الهوى يا عبد قيس وأنجدا

أقول له : يا عبد قيس صبابة ... بأي ترى مستوقد النار أوقدا

فقال : أرى ناراً يشب وقودها ... بحيث استفاض الجزع شيحا وغرقدا

فأعجبت الناس وتناشدوها ، وقال جرير للناس أعجبتكم هذه الأبيات قالوا نعم قال كأنكم بابن القين وقد قال :

أعد نظراً يا عبد قيس لعلما ... أضاءت لك النار الحمار المقيدا

فلم يلبثوا أن جاءهم قول الفرزدق هذا البيت وبعده :

حمار بمروات السحامة قاربت ... وظيفيه حول البيت حتى ترددا

كليبية لم يجعل الله حولها ... كريما ولم يسنح بها الطير أسعدا

فتناشدها الناس فقال الفرزدق كأنكم بابن المراغة قال :

وما عبت من نار أَضاء وقودها فراس وبسطام بن قيس مقيدا

فإذا بالبيت قد جاء لجرير ومعه :

وأوقدت بالسيدان ناراً دليلة وأشهدت من سوءات جعثن مشهدا

والتكلف في كل ذلك ظاهر بيّن .

ولهذه القصص أَشباه ونظائر لا نطيل بها ، ونشير بعد ، إلى شيطان جرير ، فقد زعم بأنه كان « شيطاناً راقياً » وقيل إنه نفس شيطان الفرزدق ، وقيل إن جريراً لم يكن يستطيع أَن يقول شيئاً من الشعر إن لم يعنه الشيطان .

وأَنت تذكر أن بشر بن مروان أَرسل أبيات سراقة البارقي التي يفضل فيها الفرزدق ، إلى جرير ، وطلب إلى الرسول أَلاّ يبرح حتى يجيب عن الشعر .

فأخذ جرير القصيدة ومكث ليلة يجتهد أن يقول شيئاً فلا يمكنه فهتف به صاحبه من الجن من زاوية البيت فقال له :

أزعمت أنك تقول الشعر ما هو إلا أَن غبت عنك ليلة حتى لم تحسن أن تقول شيئاً فهلاّ قلت :

يا بشر حق لوجهك التبشير هلا قضيت لنا وأنت أمير

فقال له جرير : حسبك كفيتك ... الخ

وحديث الجن في الشعر مستفيض ، والشعراء يفخرون بشياطينهم ، وما هي بشياطين ، إنما هي رئيات من الخيال ، وإلهام من القريحة ، يتمثل للشاعر كأنه يدفعه إلى القول ، ويغريه به

وهذه الأسطورة ليست وقفاً على الشعراء العرب وحدهم ، ففي الشعر الأجنبي شبه ذلك ، والشعراء دائماً عبيد الخيال في كل صقع وفي كل أمة ، وهذه الرئيّات التي تتمثل لهم بصور شتى كالقريحة المتكلمة ، أو إلهة الشعر ، أو الشيطان ، هذه هي التي تغويهم بما تفتح أمامهم من مغاليق الخيال ومعميات الأفكار ، فيقولون ، ويهيمون ، وتكثر أقوالهم ، ويكثر الغواة معهم ، وصدق الله العظيم : والشعراء يتبعهم الغاوون إنهم في كل وادٍ يهيمون ...

*

أحكام مرود عاويه

عرفت ما كان من شهرة جرير ، وكيف ترامت إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وكيف أخذ الناس يفضلونه على خصميه أو يفضلون أحدهم على صاحبيه ؛

ولكن جريراً لم يقنع بتحدث الناس عنه ، وكان في أحاديثهم ما يرضيه كثيراً ، وكان فيها ما يسوءه أيضاً ، وإنما عمد إلى تفضيل نفسه ، وإلى إدعاء عريض في الشعر ، قد يستساغ لولا هذا التشدق في التهديد والوعيد .

إنا لنعجب بالمجودين ، ونحب أن نطلع على أماكن الإجادة فيما صنعوا ، ولكنا نقف في شيء من النفرة حينما يأخذ بيدنا المحسن فيرينا أماكن إحسانه ويقول دونكم ما صنعت ، وما أصنع ، وما لا يحسن سواي أن يصنعه ، وننفر أكثر من ذلك إذا سمعنا وعيداً وتهديدا وإبراقاً وإرعادا ، في سبيل إظهار المرء حسنات نفسه .

ويخفف من هذه النفرة ، شدة إعجابنا ، وتقديرنا ومحبتنا ،

فإذا أعجبنا بالصانع المجيد ، وإذا قدرنا له حسن صنعه وإذا محضناه المحبة ، ابتسمنا حينما يتحدث عن نفسه ، وأصغينا لحديثه في كثير من الإنصات والاستزادة واللذة ؛

وجرير لا يفرق عما ضربنا من المثل في شيء ، فهو يشير إلى عبقريته ، ويتحدث عن تفوقه ، ويدل على مواطن أجادته ثم هو يقول لك إني هدمت وهدمت ، وبنيت وبنيت ، ثم لم أجد عند التيم بناء أهدمه أو مجداً أضعه ، ثم هو لا يقف عند هذا بل يحكم على الناس بما يختار وبما يدله عليه هواه وطبعه ، لا يهاب في حكمه ولا يماري ، وإنه لعذب بعد ذلك — على ما نعتقد — أن نصغي إليه في أحكامه على نفسه ، وعلى سواه من الشعراء ، وستجد شيئاً كثيراً من اللذة إن كنت معجباً به تمحضه المحبة والتقدير ، وقد لا تجد ذلك إن كنت من أرباب النفرة الشديدة من الادعاء .

كان جرير عند الوليد بن عبد الملك[1] فسأله من أشعر الناس فقال ابن العشرين (يعنى طرفة) قال فما رأيك في بني أبي سُلمى

---

(١) لا عبد الملك بن مروان — كما شك صاحب الأغاني — لأن الشاعر يشير الى موت الاخطل في هذا الحكم وقد مات الأخطل سنة ٩٢ هـ ومات عبد الملك سنة ٨٦ هـ ؛

قال : كان شعرهما نيراً يا أمير المؤمنين ، قال فما تقول في امرئ القيس ، قال اتخذ الخبيث الشعر نعلين ، وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلاذله ، قال : فما تقول في ذي الرمة ؟ قال : قدر من طريف الشعر وغريبه وحسنه مالم يقدر عليه أحد ؛ قال : فما تقول في الأخطل ؟ قال ما أخرج لسان ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات ؛ قال : فما تقول في الفرزدق ؟ قال : في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة الشعر قد قبض عليها ؛ قال : ما أراك أبقيت لنفسك شيئاً ! قال: بلى والله يا أمير المؤمنين إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود ، نسبت فاطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنيت ، وارعلت فاغزرت ، وزجرت فأبحرت ، فأنا قلب ضروب الشعر كلها وكل واحد منهم قال نوعاً منها . قال الخليفة صدقت .

وقال عكرمة بن جرير لأبيه ياأبت من أشعر الناس :

فقال الجاهلية تريد أم الإسلام ؟ فقال عكرمة: فقلت : أخبرني عن الجاهلية ؟ قال شاعر الجاهلية : زهير . قلت فالإسلام قال : نبعة الشعر : الفرزدق . قلت : فالأخطل . قال : يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الخمر قلت فما تركت لنفسك ؟

قال دعني فإني بحرت الشعر بحراً .

وسئل جرير عن نفسه وعن خصميه أيهم أشعر فقال أما الفرزدق فيتكلف مني مالا يطيقه ، وأما الأخطل فأشدنا اجتراء وأرمانا للغرض [1] وأما أنا فمدينة الشعر .

وسأل جرير رجلاً : أيما أشعر ، أنا أم الفرزدق فقال له أنت عند العامة والفرزدق عند العلماء .

فصاح جرير أنا أبو حزرة غلبته وربِّ الكعبة والله ما في كل مائة رجل عالمٌ واحد .

ولقد سقنا إليك هذه الأحكام ، على ما فيها ، لتعلم أن الرجل كان ينصف خصومه في بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن لينسى أن يعزو الفضل الأكبر ، والفلَج إلى نفسه .

---

(١) وفي روايه ثانية : وأما الأخطل فأنعتنا للخمر وأمدحنا للملوك .

*

من صفوة الأحكام

علمت مما سلف أن جريراً كان يرى في شعره رأياً ، قد يكون مصيباً فيه ، وقد يكون مخطئاً ، ولا مجال هنا لتفنيد كل رأي له ، إنما الحق أن ندلي برأينا مستقلا مستنداً إلى دراسة شعره وحياته ، وهو ما سنحدثك عنه في فصل يلي .

ونرى ألا نخلص إلى آراء العلماء فيه قبل أن نقرر أن الرجل كان ينصف نفسه أحياناً ، لأنه بها عليم ، وكان ينصف خصومه تارةً ، لأنه عالم بموارد الشعر ومصادره ، ولكن إنصافه بوجهيه لم يكن كل الإنصاف ، فهو إلى عصبية النفس أميل ، وهو عن اطراح عداوة الخصوم أبعد ، فكان من هذا وذاك أن رجح جانب نفسه ، وغمط حق خصومه ، ولو قليلاً .

والناس في عصره — بل في كل عصر — لم يخلصوا من عامل العصبية ، والمحبة والإعجاب ، وكل هذا ، بل شيء منه ، لا يجعل للرأي المتأثر قيمته التي لا يأتيها الباطل ، ولا يخطئها الصواب .

ومن اختلاف الناس في العصبية والمحبة والإعجاب نرى هذه

الآراء التي ينقض بعضها بعضاً في بعض الأحيان على أنا سنتخير لك من الآراء أقواهـا سنداً ، أو أحسنها فكراً ، أو ألصقها بالحقيقة ، أو أكثرها انتشاراً ، لصدورها عن راوية كبير أو ثقة من أعلام أدبنا ، ولعلنا نتجاوز ذلك لغرض لا يخفى عليك .

فأما شيخ الأدباء الأصبهاني فيقول : « إن جريراً والفرزدق والأخطل هم المقـدمون على شعراء الإسلام[1] ... ومختلف في أيهم المتقدم ولم يبق أحد من شعراء عصرهم إلا تعرض لهم فافتضح وسقط ، وبقوا يتصاولون ، على أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق في آخر أمرهما وقد أسن ونفد أكثر عمره وهو وإن كان له فضل وتقدم فليس نجره من نجار هذين في شيء ... »

وقال أبو عبيدة ومحمد بن سلام ووافقها الأصمعي ... إنه اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة (وذكرهم) .

قال محمد بن سلام والراعي معهم في طبقتهم ولكنـه آخرهم والمخالف في ذلك قليل .

وكان يونس يقول ما شهدت مشهداً قط ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع أهل المجلس على أحدهما .

---

(١) غالباً ما يراد بشعراء الإسلام شعراء بني أمية الأولون .

وفي قول يونس اعتراف ضمني بتقدم جرير لأن يونس كان فرزدقياً .

وقال ابن دأب : الفرزدق أشعر عامة ، وجرير أشعر خاصة ، وكان أبو عمرو يشبه جريراً بالأعشى والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة .

وقال أبو عبيدة : يحتج من قدم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلهم لفظاً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان ديناً عفيفاً — وما نرى وجهاً للتحدث عن الدين في الناحية الفنية .

قال عامر بن عبد الملك المسمعي شيخ بكر بن وائل : كان جرير والله أسبّهما[1] وأنسبهما وأشبههما . وفضل خالد بن كلثوم جريراً والفرزدق لأن الفرزدق مدح قبيلتين وهجا قبيلتين في بيت واحد ولأن جريراً هجا أربعة في بيت واحد .

قال الفرزدق :

عجبت لعجل إذ تهاجي عبيدها[2] كما آل يربوع هجوا آل دارم

(١) في الأصل (أسنهما) ولا وجه لها إلا ما ذكرنا .

(٢) يريد بني حنيفة .

وقال جرير :

إن الفرزدق والبعيث وأمه   وأبا البعيث لشر ما إستار[1]

وقال العلاء بن جرير العنبري وكان شيخاً قد جالس الناس : إذا لم يجيء الأخطل سابقاً فهو سكيت ، والفرزدق إذا لم يجيء سابقاً ولا سكيتاً فهو بمنزلة المصلي وجرير يجيء سابقاً ومصلياً وسكيتاً .

قال ابن سلام وتأويل هذا : إن للأخطل خمساً أو ستاً أو سبعاً طوالاً روائع غرراً جيادا هو بهن سابق وسائر شعره دون أشعارهما ، فهو فيما بقي بمنز السكيت — والسكّيت آخر الخيل في الرهان .

الفرزدق دونه في هذه الروائع وفوقه في بقية شعره فهو كالمصلي أبداً — وهو الذي يجيء بعد السابق وقبل السكيت .

وجرير له روائع هو بهن سابق ، وأوساط هو بهن مصلٍ وسفسافات هو بهن سكيت .

ورأى محمد بن سلام أعرابياً أعجبه ظرفه فسأله عن أشعر العرب فقال بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وفي كلها أغلب جرير . قال في الفخر .

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

---

(١) الإستار من العدد أربعة .

وفي المديح قوله :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وفي الهجاء قوله .

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي النسيب قوله :

إن العيون التي في طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

قال ابن سلام وبيت النسيب عندي :

فلما التقى الحيان أُلقيت العصا   ومات الهوى لما أُصيبت مقاتله

وقال الفرزدق : إنى وإياه لنغترف من بحر واحد ، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر ، وقال مرة : قاتله الله فما أُخشن ناحيته ، وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لأَبكى العجوز على شبابها ، والشابة على أُحبابها ، ولكنهم هزوه فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحا ، ولقد قال بيتاً لإن أكون قلتُه أَحب إلي مما طلعت عليه الشمس :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

وسمع مرة في المدينة قينـة تغني بشعر جرير فأعجبه فقيل له إنه لجرير يهجوك : فقال ويل ابن المراغـة ما كان أحوجَه مع

عفافه إلى صلابة شعري ،وأحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره .

وعن ابن هبيرة : كان جرير ميدان الشعر ،من لم يجر فيه لم يرو شيئاً ،وكان من هاجى جريراً فغلبه جرير ، يرجح عندهم ممن هاجى شاعراً آخر غير جرير فغلَب :

وسأل ابن سلام بشاراً أي الثلاثة أشعر فقال لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، و كان لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار (امرأة الفرزدق) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير .

وقال الأحوص و كان فرزدقياً إن الفرزدق لأشعر منه وأشرف وكان راعي الأبل يقضي للفرزدق على جرير ،

و كان الخوارج يفضلون جريراً على الفرزدق لدينه

وقال مسعود بن بشر لابن مناذر بمكة : من أشعر الناس ؟

قال : من إذا لعب شبب ،فاذا لعب أطمعك لعبه فيه ، وإذا رمته بعد عليك ، وإذا جدّ فيما قصد له أيأسك من نفسه مثل جرير حين يقول إذا لعب :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا

ثم قال حين جدّ :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفةً لو شئت ساقكم إليّ قطينا[1]

وقال محمد بن شرف القيرواني مشيراً إلى رقته وحلاوته في غزله ، وجزالته في نقائضه وأهاجيه وأماديحه ، متحدثاً عن أسلوبه الذي يبدأ بالسهولة وينتهي بالجزالة ، شارحاً نفسيته وجرأته ... وأما ابن الخطفى فزهري غزل ، وحجري جدل ،يسبح أولاً في ماء عذب ، ويطمح آخراً في صخر صلب ، كاب منابحه ، وكيس مناطحه ، لا يفل عزب لسانه مطاولة الكفاح ولا تدمي هامته مداومة النطاح ، جاري السوابق بمطية ، وفاخر غالباً بعطية ، وبلّغته بلاغته إلى المساواة ، وحملته جرأته على المجاراة »وحدّث الصولي قال حدثنا الغوث بين البحتري الشاعر : سألني أبي يوماً من أفضل عندك جرير أم الفرزدق .

قال الغوث : فقلت في نفسي : سلك جرير بسلك أبي

(١) لما بلغ عبد الملك هذا قال ما زاد أبن المراغة أن جعاني شرطياً أما إنه لو قال : لو شاء ساقكم إلى قطينا لسقتهم إليه كما قال .

أشبه فقلت له: أُفضِّل جريراً ، فقال : (البحتري) : ما صنع ميزْك شيئاً ؛ قلتُ : ولِمَ ؟ أليس جرير يشبه طريقتك ، قال أوفي المْيزحمية أوَفي الحق عصبية ؟ قلت فيم تفضل الفرزدق ؟ قال لأني رأيت جريراً لا يهجو باكثر من خمسة أشياء يكرّرها : القيون ، وحراخته ، والزنا ، ونفي عمر بن عبد العزيز له من المسجد ، وضربه الرومي

ورأيت الفرزدق لا يخلو في كل قصيدة له من أن يرميه بسهام شتى غير مكررة ولا معادة وفي هذا من الفضل مالا يخفى ؛

وهذا الرأي الذي حكم به البحتري لم يعجب محمد بن شرف القيرواني فقال :

« ولو حضرت هذا المجلس لوقفت البحتري على ما جهله ، ونبهته عَلى ما أغفله ، وذلك أن كليب بن يربوع وهي قبيلة جرير لا توازي في الشرف دارماً وهي قبيلة الفرزدق،لغالب ، فناضله جرير مناضلة المساواة ثلاثين عاماً ، وإذا تناصف في المكافحة قرنان؛سيف أحدهما حسام ، وسيف الآخر كهام ، فصاحب الكهام أصدق مصاعا ، وأطول باعا ، وإنك لم يفخر عليك كفاخر ، ولم يغلبك مثل مغلَّب»

وحكى أبو عمرو بن العلاء قال كنت عند جرير أقرأ عليه من شعره حتى قام على رجليه وتلقى رجلاً بكلتا يديه، ونظرت إلى الرجل فرأيت أسوددمياً، كأنه جُعَل يسوق أعناقا فعجبت من انحطاط جرير لمثله فقلت يا أبا حزرة من هذا الذى أجللته هذا الاجلال؟ فتبسم وقال: هذا عطية بن عوف الخطفى، وإن امرأً ناضل بهذا بني دارم كذا وكذا سنة فما نضلوه، لشاعر.

قال أبو عمرو: فلما عرفت أنه والده استحييت

وحكم الصلتان العبدي بين جرير والفرزدق فقال:

أرى الخطفى[1] بذّ الفرزدق شعرُه ... ولكن خيراً من كليب مجاشع

فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله ... جرير ولكن في كليب تواضع

ويرفع من شأن الفرزدق أنه ... له باذخ من ذي الحسيسة رافع

يناشدني النصر الفرزدق بعدما ... أناخت عليه من جرير صواقع

فقلت له إني ونصرك كالذي ... يثبت أنفًا هشمته الجوادع

ويقول المرزباني: أكثر أهل العلم يقدمون الفرزدق على جرير

ويقول ابن خلكان: الأكثرون على أن جريراً أشعر من الفرزدق

وقال أبو عبيدة: «أما الرواة فيقولون الفرزدق أشعرهما، وأما الشعراء فيقولون جرير أشعرهما، وهذا عندي هو القول»

---

(١) يعني جريراً.

وكان ابو عمرو بن العلاء يشبه جريراً لحسن تشبيه بالاعشى. وسمع الراعي من يتغنى بقول جرير :

وعاوٍ عوى من غير شيءٍ رميته بقافية أُنفاذها تقطر الدما

فقال لعنة الله على من يلومني أن يغلبني هذا الشاعر .

وفي النقائض : أن جريراً كان أشد الشعراء الهجائين تكرمة، لم يمدح أُحداً فهجاه ، ولم يهج أحداً قط فمدحه، والهجاؤون في الإسلام ستة : المخبّل القريعي ، وحسان ، والحطيئة ، والفرزدق ، وجرير والأخطل .

وقضى مروان بن أبي حفصة بين جرير وصاحبيه فقال :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو الكلام ومره لجرير

ولقد هجا فأمض أخطل تغلب وحوى اللُّهى بمديحة المشهور

وقال الأخطل : أنا أمدحهم للملوك وأنعتهم للخمر ، وأما جرير فأنسبنا وأسهبنا[1] وأما الفرزدق فأفخرنا .

ومن طريف الأخبار في هذه الأحكام أن أبا مهدي الباهلي — وكان فيه شيء من المرة — سئل مرة أيما أشعر أجرير أم الفرزدق ؟ فغضب ثم قال : جرير أشعر العرب كلها ، ثم قال : لا يزال الشعراء موقوفين يوم القيامة حتى يجيء جرير فيحكم بينهم

---

(١) لعله وأسبنا .

*

في مسالك الحياة

يخيل لقارئ جرير أن الرجل كان همه السباب والشتم في الهجاء ، وأنه قصر العمر على ذلك فكيف كان أمره في المشاركة بشؤون الحياة العامة ؟

قد يكون الهجاء والعوامل التي دفعت إليه من عصبية ونفرة — مشاركةً في الحياة العامة ، بل هو مشاركة إلى حد بعيد ، ذلك أن الشاعر الذي يرقب ما يقال في قومه ، ثم ينضح عنهم ويذود ، إنما هو شاعر قومي يشارك أبناء جلدته فيما يضطربون به من شؤون الحياة ، وهو بعد ذلك ذو رأي في هذه المشاركة ، وقد يكون بهذا الرأي منفرداً ، وقد يكون متفقاً به وسواه ، وعلى هذا تستطيع أن تقرر أن جريراً كان شاعراً قومياً عصبياً شارك قومه في عصبتهم وفي شؤون حياتهم بمقياس لم يعرف من قبل .

وكذلك تقول في خصمه وابن عمه الفرزدق ، فإن الرجلين كانا يتسابان وهما فرعان من تميم ، فإذا حشر نفسه بينهما شاعر كابن لجأ مثلاً رأيت أنفة الخصمين أن يتعلق بأحدهما دخيل ،

وتُكبر هذه العصبية من الفرزدق حينما يخاطب ابن لجأ بقوله .

وما أَنت إن قرما تميم تساميا أخا التيم إلا كالوشيظة في العظم

وترى مشاركة شاعرنا في الحياة العامة مما يتصل بحياته من قصص وشعر ، وإذا لم يكن هذا الشاعر مشاركاً في الحياة العامة فكيف تكون المشاركة ... ؟

لقد اضطرب في الحياة كل مضطرب ، وعاشر الطبقات على اختلافها ، ولن تستطيع أن تتخيل بيئة عربية أموية لم يلابسها شاعرنا ولم يكن له رأي فيها ، إلا ما ندر .

فلقد عرف حياة البادية الخشنة ، وعيشة الفقر الضنكة ، كما عرف حياة الحضر اللينة ، وعيشة الغنى الرحبة ، وتقلب في اعطاف هذه الحياة عسراً ويسراً ، وشقاء وفرحاً فذاق كل ذلك ، وانطلق لسانه فيه .

وعرف ألوان الحياة وأَخذ من كلٍ بنصيب ، فهو تارة حاجٌ تقي ورع : إذا قال له الفرزدق في الحج :

فإني لاقٍ بالمنازل من منى نخاراً نخبرني بمن أَنت فاخر

لم يفخر بغير التقوى ولم يجبه بغير قوله « لبيك اللهم لبيك » إذ يرى في هذه التقوى أفضل فخر وأَرجحه .

وهو طوراً شتّام سبّاب يهتك الأعراض ويرمي المحصنات ، ثم يستغفر من ذنبه .

وهو آ نًا مجاهد غاز في عسكر الخليفة سليمان او غيره ، وهو آنًا آخر مرفّهٌ عليه في العيش يلبس الخز ولا يتجشم مشقة القتال ، ولا نزال الأقران .

وهكذا تجد جريراً في سائر أبواب الحياة ، رجلاً عمليًا يأخذ نفسه بما يأخذ الناس به أنفسهم ، ثم ينطلق لسانه فيصور لك البيئة العربية أفضل تصوير وأصدقه ، ويحمل إليك قصصًا فنيًا تكاد تفنى فيه شخصية الشاعر ليعطيك صورة عن المحيط والجماعة التي يتحدث عنها ، وهذا عنصر كبير من أهم عناصر الشعر القصصي كما ترى في الإلياذة أو الأوديسا اليونانيتين .

وأنت حين تقرأ الصور الفنية التي يحملها إليك جرير تشعر كأنك تعيش عيشة الأولين ، فتلمس حياتهم ، وتسمع أحاديثهم ، وتشعر بشعورهم فتكبر هذه القدرة على الإبانة والتصوير .

*

نزعته السياسية

رأيت في الكلام على اتصال جرير بعبد الملك أن الخليفة الأموى لم يسمح للشاعر أن ينشده مديحه إلا بعد جهد ومشقة واستعطاف .

ذلك أن جريراً كان ذا عصبية مضرية ، وكان شعراء مضر يمالئون ابن الزبير على عبد الملك ، وما كان تمنع عبد الملك عن قبول جرير في عداء شعرائه المداحين إلا استتابة لجرير وعقاباً له على عصبيته المضرية .

وإذا ذكرت ما تأجج في عصر بني أمية من عصبية القيسية والقحطانية ، وأن عدي ابن الرقاع شاعر عبد الملك كان قحطانياً ، عرفت السر الذي قرب عدياً من الخليفة ، والداعي لهجاء جرير لعدي ، وتعرضه إليه ، بله ما كان من تحزب الشعراء ، حتى أن جريراً كان يجلس إلى رجل من أهل اليمن قريب من عدي ينشده ما قال الشعراء في مذمة اليمنية إغاظة للرجلين ، وبخاصة عدي بن الرقاع .

ولكن جريراً كان في حاجة إلى الغنى والسعة ، ورغد العيش ، وطيب الملبس والمأكل ، وكل ذلك لا يناله بعصبيته الأولى ، فمال إلى رجال بني أمية ، وإلى أمرائهم ثم اتصل بخلفائهم كما رأيت من قبل ، فأغدقوا عليه نعمتهم ، وانطق لسانه في مديحهم .

وترى هذه الزلفى والتحبب إليهم في قصائده جلية ، حتى أنه لم يكن ليتورع عن التعريض بالأموات شماتةً واسترضاءً ، وماذا بعد هذا اللؤم في التعريض بابن الزبير وقد أصبح رميماً حينما مدح عبد الملك فقال :

دعوت الملحين أبا خُبيب جماحاً ، هل شفيت من الجماح؟

وان مما يطرب له الملك الظافر أن يعرّض بخصمه الهالك فيقال إنه كان في ضلالة حملته على العناد حتى هلك .

ولعل مما زاد في إعجاب عبد الملك هذا الاستفهام في قوله المتقدم ، وما أعقبه من مقارنة بين المغلوب والغالب ، وإن ما تحدث به الشاعر عن الخليفة في تلك القصيدة — التي قيل إن فيها أمدح بيت قالته العرب — دليل على ميل الرجل إلى أرباب السطوة والغنى من بني أمية ، وبذلك يظهر أثر التكسب بشعره من ناحية ، وأثر عصبيته المضرية من ناحية ثانية .

أَما مدائحه في بني أمية فكانت تقوم على تعظيم شأنهم وما لهم من خطر في الحياة الدينية والدنيوية ، فهم الذين اختارهم الله لخلافة مقام الرسالة ، وهم الذين ينسبون إلى الفرع النبيل من قريش ، وهم الذين أثبتت الأيام والأَحداث أنهم أهل للخلافة والسلطان .

بمثل هذه المعاني كان الشاعر يمدح خلفاء بني أمية ، وأكثر ما تظهر الفكرة الدينية في مدائحه ، ففي قصائده التي ذكر بها عمر بن عبد العزيز لما كان يقتضيه المقام من مقال ، ولأَن نفس الرجلين كانتا تتلاقيان في سماء واحدة من العفاف والتقوى ، وبهذا كان جرير أقرب الشعراء من عمر ، وآثرهم عنده .

وأَما موقفه من الحركة الشعوبية التي كانت تذر قرنها في العهد الأموي ، فيظهر أَنه لم يكن فيها معادياً أو مناوئاً ، لضعف هذه الحركة أولاً بالنسبة لقوتها في العصر العباسي ، ولأَن شاعرنا كان ديِّنا ؛ ولعله كان قانعاً بظاهر هذه الدعوة الخلاب ، لأَنك تعلم أن أَول قيامها كان في تأييد المساواة بين العرب والفرس بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وجرير لم يحجم عن العطف على الموالي من الفرس ، حتى قيل إنه حينما قدم

دمشق ، وافداً على الوليد بن عبد الملك ، وقدمها الفرزدق وافداً أيضاً ، دخل كلاهما مسجد دمشق ، فأما الفرزدق فلم يكن يطيف به إلا نفر قليل من خندف ، وأما جرير فكان الناس عنقاً واحداً عليه ، وكلهم من قريش ومواليها ، يسلمون عليه ويسألونه عن مسيره وأهله وأسبابه ، وقد وافته في ذلك اليوم مائة حلة ، أهداها إليه الموالي بنو الأحرار من العجم لمدحه قيساً وقوله في الفرس :

فيجمعنا والغر أولاد سادة ⠀⠀ أب لا يبالي بعده من تعذرا

***

وبعد فإذا ضممت هذا الفصل إلى ما تقدم من خبره ، وإلى ما ستعلم من شعره ، تبينت هذا البدوي الشاعر ، ذا العصبية الثائرة ، وعرفت أنه مصور لبيئته وعصره ، مشارك لقومه في شؤونهم ، وعرفت أنه كان بانقطاعه إلى هذا التصوير الناطق ، وإلى الهجاء السياسي القومي ، وإلى هذه العصبية القبلية مع حسن أداء وتنوع آفاق — كان أمة وحده ، وكان نمطاً جديداً في الشعراء لم يعرفه التاريخ الأدبي من قبل بهذا المقياس الواسع .

*

نزعته الدينية

اتفقت الكلمة على اعتصام جرير بالعروة الوثقى ، والتزامه سبل الدين ، فلم يكن يأتي من المحرمات شيئاً ، وكانت فكرة الدين لا تكاد تغادر مخيلته في سائر أغراضه الشعرية ، فهو إن تغزل أو مدح أو هجا أو رثى ، دلك على نفسه المتدينة ، ولم ينس أنه مسلم ، يستطيع أن يستمد من معاني الإسلام وأساليبه وألفاظه ما يتفق وما هو فيه ، فإذا عرض للأخطل عاب عليه نصرانيته ، وما يتبعها من شعائر ومراسم وأحوال ، كشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وإذا هجا الفرزدق ذكر أنه فاسق يأتي المحرمات ، ويعين الأخطل لخروجه على الإسلام ، وأنه تارة مع اليهود ، وطوراً مع النصارى ، وأنه أخرج من المدينة لضعف عقيدته ، وفساد طويته .

وإذا مدح الخليفة خاطبه أنه ظل الله في أرضه ، والمرجو لإقامة شعائر دينه ، وأنه زين المنبر والحجر .

وإذا تغزل تحدث بالمغفرة ، والجزاء ، والرحمة ، وما أشبه ،

وإذا رثى أَشار إلى الأجر ، والثواب ، والصلاة ، والاستغفار ، وغيره ، فهو في كل ذلك لا يكاد يفلت من الفكرة الإسلامية وما تستتبعه من لفظ ومعنى وأُسلوب .

ولو لا ذلك الفحش في القول ، وانتهاك الحرمات كذباً وبهتاناً ، ولولا هذه السلاطة والقِحة لكان الشاعرَ الورعَ التقيَّ .

وقد كان يعلم جرير من نفسه أنه يفتري الكذب ، وينتهك الحرمة ، فكان إذا أنشد شعره أحداً ، وذكر ما ذكر ، أَعقبه باستغفار وتسبيح ، بإرادة أَو بغير إرادة ، لأن ضميره كان يربأ به ألاَّ يستغفر مما اقترف ، ولأنه كان يرى أنه مهاجَم محتاج للدفاع عن نفسه ، والذود عن حياضه بسلاح يماثل السلاح الذي هوجم به ، ولكنه كان أحدَّ وأمضى .

وأما ما يمكن أن يؤخذ على تقواه من شرب النبيذ ، فقد ذهبت طائفة إلى أن ذلك الشراب لم يكن ما نعرفه اليوم ، وإنما كان نوعاً من الشراب الحلال ، لا يسكر كثيره ، ويلذ قليله ، يصنع من التمر دون اختمار ، وقد أحله كثير من الأئمة المتقدمين ، وشربه الخلفاء المتدينون ، وصنعه بعض الفقهاء كالذي قالوه عن أبي يوسف انه كان يصنع النبيذ للرشيد ، وكان حلالاً ، وهو على

التحقيق ليس كمثل النبيذ المصنوع في هذه الأيام .

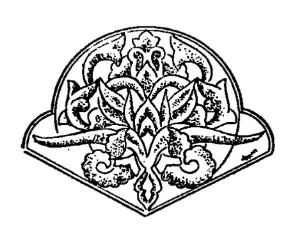
وبذلك لا نرى في الشراب الذي كان يشربه جرير ما يثلم به عفته وتقواه ،

وإنه لطريف بعد هذا أن نسمع الفرزدق يقول لجرير وهما حاجان في منى :

فإنك لاقٍ بالمنازل من مِنى فخاراً فخبرني بمن أنت فاخر

فيقول جرير : « لبيك اللهم لبيك »

وهذا الفخار بالتلبية أثر من امتلاء نفس الشاعر بالتقوى ، وإنه لجواب ، فيه ما فيه من حلاوة ولطف .



الشاعر

دراسة أشعاره

*

دراسة أشعاره

عبقريته : الهجاء . الغزل . الرثاء . الفخر . المديح . الوصف

معانيه : تشارك الشعراء في بعض المعاني المادية في شعره . أثر الحواس والمادة في التشابيه والاستعارات . خياله . سهولته ويسره . التهذيب والصقل . الروح المتقدة الشديدة . أثر عصبيته . أثر إسلاميته . وضوحه . لينه . قوته . ألفاظه الإسلامية . ترديده . مماشاة الطريقة القديمة . تجديده في الطريقة . اقتضابه . وحدة البيت والقصيد . أوزانه . قوافيه . صنعته البديعية . الشواهد من شعره . اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان . أمثلة مختلفة ..... الخ . بعض ما أخذ عليه .

مصادر البحث : ديوانه وسواه .

*

عبقريته

ولد جرير مطبوعاً على الشعر ، ونشأ في بيئة أغرته بالشعر وعاش والشعر محيط به أيما إحاطة ؛ فهو إن خلص من تأثير عامل يحفزه على القريض ، لم ينجُ من تأثير عوامل تدعوه إليه ملحة كل الإلحاح .

وأنت إذا شئت أن تعيد عبقريته إلى مصادرها الأولى وجب أن تتبين دخيلته وسجاياه ، وأن تدرس هـذه النفسية المتوقدة الإحساس ، وما كان لها من تأثير في خصب عبقريته .

كان جرير أعرابياً ، فيه نَعرة الجاهلية وعصبيتها ، ولم تكن وفادته على الملوك والأمراء في الحضر لتخفف من أثر تلك الحدة الثائرة ، وما لنا نحاسبه على هذا ، والأمة العربية لم تنج ـ أيام بني أمية ـ من عصبيتها وجاهليتها الجهلاء . وإذا كان الإسلام قد استطاع أن ينشر بينهم لواء الحق ، فإنه لم يستطع أن يغير من نفوسهم الثائرة ، وعصبيتهم الجامحة الا قليلاً ، وإلا فما هذه القيسية واليمنية

وما هذه النعرة الجاهلية ، والعصبية القبلية التي نجدها في عصر بني أمية ·؟

والواقع أن تغيير هذه النفوس يحتاج إلى زمن ليس بقصير ، وقد مضى على الأمة العربية ثلاثة عشر قرنًا وهي خاضعة لدين الحرية والمساواة والإخاء ، وما تزال طائفة منها تتعزى بعزاء الجاهلية وتدعو بدعوتها ·

وإذا كانت تنصر الأخ ظالمًا فكيف لا تنصره مظلومًا ، وكيف لا تغضب لكرامتها ، ولا تثور لانتهاك حرمة من حرمها ؟ وهذا شأن جرير فقد كان سريع الغضب لكرامة قومه ، سريع النفرة لحرمة قبيله ، يلتجئ إلى لسانه في الغضب إذا ما التجأ سواه إلى السيف ، فيفعل لسانه ما لا يفعل سيف غيره ·

وهذه النفسية الجاهلية تزدان بذكاء حاد ، وبديهة حاضرة ، وخاطر متوقد ، وهي بهذا عصبية المزاج متوثبة الإحساس ·

وعصبية مزاج شاعرنا هي سر العظمة في هجائه ، وتوثب إحساسه هو سر الخلود في غزله ومراثيه

هاتان الناحيتان هما اللتان نعتقد أن جريراً لم يلحقه بهما صاحباه الأخطل والفرزدق ، إذ من السمو الذي لا يطاول أن

يقف شاعر يتصدى له ثلاثة وأربعون شاعراً فيرمي بهم واحداً بعد آخر ، وينشد قصيدة دامغة فيخمد بها جمرة من جمرات العرب الشريفة ، وهو بعد كل هذا لا يبالي بما يقوم حوله من ضجيج ونباح .

ومن الطبع الذي لا يدانى أن ينشد الشاعر في الغزل والرثاء ما يثير كوامن النفس ، ويحرك سواكن القلب ، وهو مشغول بغير هذا النوع من القول ، وهو لو ترك لأعاد شرة الشباب جذعة ، ولأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها ، ولاتخذ من العيون معيناً لا ينضب ، ومن الاضلاع موقداً لا يفتر ولا يهدأ .

عد إلى هجائه وتبين معانيه التي كان يصبها على رأس خصومه صباً ، فإنك واجد فيه إفحاشاً وإقـذاعاً قلما يوفق إليهما شاعر مطبوع ، وستجده ثائراً لكرامته و كرامة قومه ، ذائداً عن حوزتها .

وستجد قدرة على الشعر لا تتاح لغير من كان في طبقته من الشعراء ، فهو ما يبرح يجول في ميدان القول ، ويستقصي معائب من يهجو حتى يأتي على آخرها ، لا يدع مطعناً ماضياً ولا حاضراً إلا ذكره ، سواء أكان في الجاهلية أم في الإسلام .

فإذا ضاقت الحقائق به عمد إلى الكذب فاختلق ، وما يزال يأخذ خصومه من كل ناحية ، حتى يملك عليهم الأنفاس ، وهو في كل ذلك كثير الاعتداد بالنفس ، عظيم الفخر بأجداده الأقدمين ، على ضعة في الحسب .

وإذا استطاع الفرزدق أن يكون الشاعر العظيم في الفخر ، وإذا أعين على خصمه بكرم الأرومة ، وشرف المحتد ، فإن من العظم بمكان أن يوجد جرير لنفسه فخراً بآبائه وأجداده ، وأن يفخر على خصمه بما لا يستطيع سواه أن يجد فيه دعامة فخر ومستند عز .

والهجاء عند جرير شديد الصلة بفخره ، فهو إذا هاجى افتخر وإذا افتخر أذل خصمه وعيّره بما يحصيه عليه ، وبما يختلقه اختلاقا .

خذ مثلاً لذلك قصيدته اللامية احدى نقائضه التي رد بها على الفرزدق والتي يقول في مطلعها :

لمن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلح الأعزل

فهي إذا تركت ما فيها من الغزل جانباً ، قسمان: فخر ، وهجاء .

فأما الأول فاعتزاز بنفسه ، وإعداده للشعراء كافة سمّاً ناقعاً ، يسقي آخرهم بالكأس التي سقى بها أولهم ، ثم تحدثه عما بنت له آباؤه من العز والمكارم ، عن أحلام قومه الرزينة ، وعن جهل الجاهلين منهم ، وعن قوتهم التي تفوق قوة خصومهم في الحرب ، ثم عودته إلى عصبيته ومن يشد أزره من قومه ، وما لعشيرته من فضل وقوة وعز .

وأما القسم الثاني فهجاء للفرزدق والبعيث والأخطل ، فقد وسم الأول ، وأذل الثاني ، وجدع أنف الثالث في بيت واحد ، ثم هجا مجاشعاً ، ورمى الفرزدق بأن قومه حدادون ، وأن له أخس بيت وأنه من قوم خفيفة أحلامهم ، أذلة لا يثأرون لقتيلهم ، ثم يهجو البعيث ويشبهه بالطير الضعيف ، ويشبه نفسه بالأجدل المخيف

ويعود إلى الفرزدق فينصبُّ عليه كالعذاب من السماء ويأخذه من علٍ ، ويختطفه اختطافًا ويقول :

إني انصببت من السماء عليكم حتى اختطفتك يا فرزدق من علِ

ثم ينصح الفرزدق أن يفتخر بأخواله ، لأنهم أشرف من قومه القيون ، ولقد ألهى أبا الفرزدق على المكارم عمله في الحديد والنار .

هذا مثل من هجاء جرير ، وفخره يقوم على تمجيد نفسه وقومه ، وإذلال خصمه وعشيرته ، وتكرير بعض الصفات .

وإنك لتستطيع أن تستخلص من سائر هجائه أن جريراً كان كثير التعداد لنقائص خصمه ، مبالغاً في الزراية والتحقير ، غير مبالٍ باختلاق ما يشين ، زائداً في المعائب ما تسمح به قريحته ، مستقصياً للمخزيات قومية كانت أم شخصية ، ماضية أم حاضرة .

وهجاؤه لا يخلو من تهكم ومقارنة بين من يهجوهم وبين أعدائهم ، لإظهار فضل هؤلاء على أولئك ، ولا يخلو من جمع عدة شعراء في قَرَن واحد .

وهو في هجائه الفرزدق خاصة يشبهه بالقرد ، ولا ينسى أن يحدثه عن معائب قومه وعن القدوم والعَلاة والكير ، وما يتعلق

بصنعة القَيْن ، ولا ينسى أن يذكر له الأيام التي لا تشرف قوم الفرزدق كتحدثه عن بني مجاشع أنهم خانوا الزبير يوم الجمل ، ثم هو لا يتعفف عن رمي المحصنات بما يشين .

ويعود فيتكلم عن أخلاق الفرزدق الشخصية فينعي عليه خبثه وفجوره ، ويشهره بفسقه ودعارته ، ويحذر الناس أن يحل الفرزدق فيهم ، فيحل معه الخزي والعار ، ثم يتهمه بدينه لمالأته الأخطل ، ويزعم أنه يسجد للصليب مع النصارى ، وأنه قد لحق بهم لينصرهم وليس به انتصار .

ويزعم أن اليهود شيعته يوم السبت فهو قد خرج عن الإسلام إلى النصرانية واليهودية ، وقد وجب عليه الحد ، وحل عليه ما لقيت ثمود .

وإذا هجا الأخطل لم يكد يتجاوز أسلوبه الذي هجا به الفرزدق من استقصاء معائب قومه في الجاهلية والإسلام ، وتذكيره بأيامهم التي غلبوا فيها حتى أصبح التغلبي مغلَّباً أبداً ، عبداً في كل مكان ، لا تسمو همته إلى مكارم الأمور وأشرافها .

ثم تراه يمدح بكراً لقتلها كليباً ، ومن ذلك يتوصل إلى القول

إن التغلبي غنيمة ولو كان على ظهر جواده ، وأما التغلبية فلهوانها كان مهرها فلسين .

وقد أعين جرير على الأخطل بدينه ، فكان ينعي عليه النصرانية والخمر والخنزير ، بله ما كان يوليه من تهكم في تصغيره وتلقيبه بأنه الأخيطل أو دوبل[1] أو ذو الصليب .

وكان يهزأ من دين تغلب الذي هم عليه ، فيذكر أنهم يذبحون الخنازير خسيسة الأثمان يوم فصحهم ، وإذا مات منهم الميت تلقته الشياطين ، وإذا مات ميت من الإسلام تلقته الملائكة ، وهم يعطون كتابهم بشمالهم ، ويعطى المسلمون كتبهم بالايمان .

ثم يمدح قيس عيلان لأيامها المشرفة على تغلب ، ويذكر إيمانهم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ويعير تغلباً بانخذالها وتساقط المنهزمين منها كتساقط القراد عن الإبل ، فأي ذل وأي هوان يكون بعد ذلك ؟ وقصيدته الميمية التي يستهلها بقوله :

متى كان الخيام بذي طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيام

تكاد تتوفر على هجاء الأخطل ، ولكن شاعرنا لم يرد أن يقفز إلى الأخطل دفعة واحدة ، بل تغزل وبث واشتكى ووصف ، ثم حقر الشعراء الذين كانوا يعوون عليه ، فقال إنهم

---

(١) المذكر من الخنازير ، والحمار الصغير لا يكبر

لقوا جزاء ما كسبته أيديهم ، وانتقم لنفسه منهم ، ثم شبههم بالثعالب حين تلقى أسداً في العرين له اعتزام وقوة .

ويحدثنا أنه إذا أوقع عليهم صاعقة بادرهم بأخرى تلتهب التهابا ، فيطيرون منها بين السماء والأرض ، وليس فيهم إلا مصطلم المسامع ، أو خصي ، أو رجل عظم هامته حطام .

هذا هو الحكم الذي استقصى به الشعراء في عصره : مصطلم المسامع ، أو خصي ، أو رجل عظم هامته حطام ، فأين يقع الأخطل من هذا التقسيم ؟

إنه من قوم لا هم ولاة قضاء عدل ، ولا مستنكرون لأن يضاموا ، وما لهم من فخار يوم الخصام .

وأين هؤلاء من أصل جرير الخندفي الذي لا ترام جبال عزه ؛ ومن قومه بني يربوع أولي الأسنة الحداد ، والألسنة المقاول ، ومن مقامه المكين في قوم يخضع لحكمهم الملك الهمام .

أين من هذا المجد قوم لا يصاهرهم كريم ، وليس الآباء ولا الأمهات ، ولا الأبناء ، ولا الأخوال بأولي كرم وعزة : فالمرأة التغلبية في خزي وريبة ، على مؤخرها الصليب ؛ وفي (مقدمها) الجذام .

والابن التغلبي يدعى الفُلَيْس ، ولا يسمى ابنٌ في تغلب عبد الملك ولا هشام .

وأم الأخيطل كالتغلبيات معروف ما على مؤخرها : صليب وشامات ، ونسوته الخبائث مولعات بقس لا ينام ، ولا يُنيم من عنده ، وإنما يعكف معهن على لحم الخنزير والخمر ، وعلى الريبة بعد ذلك .

هذا شيء مما يتحدث به جرير في هجاء الأخطل ، وفيه من المطاعن ما يخرج عن الأدب والأخلاق .

فإذا استكمل كل ذلك اطمأن إلى أن خصمه لن يلحقه ، إذ كيف يعتمد على هذا الجحفل من المخازي في المفاخرة والمناجزة ، أم كيف تحمله ارساغٌ منكسرة ، وعظام محطمة في رهان المجد والشرف .

هذا هو الأخطل ، بل هذه صورة من صوره في شعر جرير ، تحله الموقع الثالث من مواقع التصنيف عند خصمه ، حين صنف الشعراء الغاوين عليه بمراتب ثلاث :

مصطلم[1] المسامع ، أو خصي ، أو رجل عظم هامته حطام .[2]

ومما يلاحظ أن جريراً لم يكد يخص الأخطل وحده في

---

(١) المصطلم = المستأصل المقطوع من أصله .

(٢) الحطام = ما تكسّر من الشيء اليبس الحقير .

هجاء ، بل كان يتعرض لغيره أثناء الطعن عليه كما كان يتعرض لغير الفرزدق أثناء هجاء الفرزدق ذلك ، أن هذه الطائفة المتألبة عليه ، لم تكن لتغادر فكره ، ولم يكن يهدأ باله أو ليغمض جفنيه عنها لحظة ، فهو - كما رأيت - إذا هجا احداً أشرك معه غيره في الهجاء ، وهو بعد آخذ بخناق مناوئيه أبداً : كوى مجاشعاً قوم الفرزدق بالهجاء وحزّ آنافهم ، ثم جدع أنوف تغلب ، وأرسل القصائد في الأُخيطل رهوا ، ثم علقه بالحبل الذي ربط به الفرزدق والبعيث وعمر بن لجأ معاً ، كالإبل المشدودة بالحبال .

وقصيدته الدامغة التي فيها أَهجى بيت قالته العرب :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

والتي هجا بها راعي الإبل ، وقومه بني نمير ؛ من أعظم ما خلفته لنا الأَجيال من الشعر الخالد ، وفيها أمثلة على ما ذكرنا لك من جمع خصومة الشعراء في بيت واحد ، وتعيير بني نمير بخفة الأَحلام ، ودناءة المحتد ، مع أَنهم كانوا جمرة العرب ، وسادة في الناس .

ويحسبك أَن تعلم أَن أحداً من نمير لم يعد ينتسب نميراً بعد هذه القصيدة ، وقد كان إذا سئل ممن الرجل ؟ قال : من بني نمير ... أَلا ترى !! ومد صوته .

وكما تتوضح فحولة جرير في الهجاء، من قصيدته الدامغة، فإنك تستبين نفسيته الثائرة لكرامته ولسانه الذرب في الدفاع عن المحارم، واعتداده بنفسه، وتسخير مواهبه في مصلحة قومه، وتصويره الحياة الغابرة أجمل تصوير، تستبين كل ذلك وأكثر، من قوله: إنما بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا المربد، فلا يسبهم أحد إلا سببته.

هذه العصبية الجاهلية، وهذه النفسية الثائرة للكرامة، هما خير ما تفسر به هجاءه، وقد أيقنت معنا من قبل، أن نفسية العصر الأموي كانت جاهلية، وتوءمن معنا بعد هذا أن هذه النفسية كانت تثور للكرامة، إذ علمت أن الحجاج آخذ جريراً على هجائه الناس وسبهم، فاعتذر إليه بالدفاع عن كرامة نفسه وقومه، وقال له: والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فانتصر... ثم قال: ما لي ولفلان، ما لي ولفلان... وما زال يذكر الشعراء الذين تصدوا له، وانتصر لنفسه منهم حتى أتى عَلَى آخرهم من المساء إلى الصباح، فقال الحجاج: قاتله الله أعرابياً إنه لجرو هراش.

من كل ذلك ترى أثر الوراثة العربية، والبيئة العربية، وساعد هذين العاملين أن الرجل مطبوع على الشعر، فشعر، وجارى.

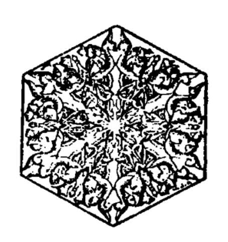
البيئة والوراثة بعمله ، فتكوّن له من مجموع الوراثة والبيئة والعمل الشخصي ، والطبع الفطري ما أنضج عبقريته في الهجاء ، ولا تنس فضل الخلفاء والأمراء في إنماء هذه العبقرية الهجائية ، فقد كانوا يسكتون عما يعرض له الشعراء ، بل كانوا يغرون الشعراء بعضهم ببعض — كما مر بك من قبل — وقد كان في استطاعة ملوك بني أمية أن يقطعوا ألسنة الفتنة بين القبائل كما قطعها الرسول عليه السلام ، وأبو بكر وعمر من بعده ، وأن يكونوا لجانب الإسلام في كفاح أخلاق الجاهلية ، ما أمكن الكفاح ، ولكن السياسة أبت عليهم أن يجيبوا نداء الدين والخلق .

وقديماً كان للسياسة من المطامع ما لا يرتضيه الزهدة الصالحون ، ومن هنا نعلم كيف استباح الشعراء أعراض القبائل أيام بني أمية ، وقليل جداً في ذلك العصر من عاقب أو زجر - كعمر بن عبدالعزيز - ونستنتج بعد هذا أن كل شيء كان يدعو جريراً لأن يكون جرواً هراشاً ، وهجّاء فحلاً يفوق الأخطل ، ولا يقل عن الفرزدق .

وأما زعم من الّف في تاريخ الأدب العربي أن شعر جرير قد « برئ من خبث الأخطل وسكره » فلنا عنده وقفة نتساءل فيها عن هذا الخبث الذي يتحدث عنه ، فإن يرد الإقذاع

والفحش في الهجاء فقد زلت به قدمه ، ولم يهتد إلى الصواب قلمه ، للذي حدثناك به من تجاوز حدود الأدب والخلق في الهجاء عند جرير ، ونعتقد أن المؤلف أراد هذا لأنه قرر بعدئذ أن الهجاء مما امتاز به الأخطل ، وبهذا أيد خطأه الأول بخطأ جديد ، ووقع بخطإٍ ثالث حين نفى نبوغ الفرزدق بالهجاء .

وهذه أخطاء لا تشرّف التأليف ، ولا تدل على غير الجهل وعدم التحقيق ، وإنه لجدير بالمؤلف أن يصحح أحكامه قبل كل شيء ، وإلا فما الفائدة من كتاب يقتنيه المقتني من أجل أحكامه فقط ، ثم يرى أن هذه الأحكام خطأ بيّنٌ ، وجهل فاضح !.



الغزل والرثاء

والناحية الثانية ـ التي لا يطاولها الفرزدق والأخطل ـ من شعر جرير : ناحية الغزل والرثاء ، وجرير ولا شك أقوى وأطبع شاعر غزل في الشام والعراق زمن بني أمية .

أضف إلى ذلك أنك لا تكاد تجد شعراً يحاكيه في طلاوته من أشعار المتقدمين إلا قليلاً : تقرأ غزله ورثاءه ، فيخيل إليك أنك تقبض على قلبه ، وتلمس أنفاسه الحرّى ، وعواطفه العاصفة ؛ فهو في غزله سهل العبارة ، رقيق الألفاظ ، بارع في انتقائها ، مُحْكِم لأوضاعها ، سلس الطبع ، ينحدر شعره إلى النفس انحداراً ، فلا تكاد تقع منه على جملة مستكرهة أو كلام مدخول ، ويكاد يكون كل بيت من الأبيات في غزله نجوى نفس أرمضها العشق ، وحزّ بها ألم الهوى فجاء بما لم يبلغه كثير من عبقريات معاصريه في الشام والعراق .

وهو في غزله مطبوع مجوّد لا تجد عليه أثر الضعف والتكلف ـ شأنه في سائر أغراضه ـ وقد كان بديهياً أن يظهر التكلف فيه لأنه قال عن نفسه ، إنه لم يعشق أبداً ، فكيف صدر هذا الشعر عن قلب لم يلامسه الحب ، ولم يروضه الأسى ؟

الحقيقة التي نؤمن بها أن الرجل لم يرد بالعشق غير ذلك النوع الذي يذهب بالنفس كل مذهب ، ولقـد كان في نجوة منه ، لأن الحياة العنيفة التي كان يحياها ، من سجال وجدال ، كانت تسد عليه سبيل الهوى العنيف .

أما الحب فقد كان يعرفه ، ولقد أحب زوجته أم حزرة وتغزل بها فقال :

أباحت ام حزرة من فؤادي   شعاب الحب أن له شعابا

وأحب أبناءه ، وعرف هذه اللذة التي يحملها الحب إلى القلوب الشاعرة ، والطباع الثائرة .

فهو إذن إنْ شعر في الغزل ، فما كان يتكلف القول فيه ، بل كان يتكلم عن عاطفة امتزجت بصميم نفسه .

ويلاحظ أن هذه العاطفة لم تكد تبلغ عمق العاطفة في شعر جميل والقيسين : ابن الملوح وابن ذريح ، ذلك لأن الرجل لم ينصرف إلى هذا النوع من القول فحسب ، ولأن الهجاء كان قد ملك عليه أيامه ، ومع ذلك فلم تكن عاطفته ضعيفة في ثورتها ، قاصرة عن التأثير ، بل كان فيها من القوة والتأثير ما يملك على المرء لبه ، ويأسر منه قلبه وفكره ، وكان إذا غزته العاطفة بقي أسر شعره

قوياً ، فلم تهن لغته ، ولم تضعف كما يضعف الكثير من المطبوعين على الشعر إذا داهمتهم العاطفة ، وسيطرت عليهم في نظمهم ، فجرير إذن أطبع من أولئك الشعراء الذين يسترون ضعف عواطفهم بقوة ألفاظهم [1] ، وأقوى ممن تسيطر عواطفهم القوية على ألفاظهم الهينة الضعيفة ، وبهذا تلمس جانباً قوياً من عبقرية جرير ، وتعلم أنه لم يكن يقول الشعر ، كما كانت تقوله طائفة كبيرة من الشعراء ، وأنه في ذلك نسيج وحده زمن بني أمية في الشام والعراق .

وغزله على ما كان فيه من سحر وفتنة لم يكن فناً قائماً بنفسه ، مستقلاً خارجاً على الطريقة الجاهلية في اتخاذ الغزل وسيلة يتوصل بها إلى المديح أو الفخر أو الهجاء ، فهو بذلك متبع ، وكذلك كان شأنه في الأوصاف التي كان يطلقها على من يحب ، فهي أوصاف جاهلية بأساليب جاهلية ، لا تفرق عن تلك إلا في التعرض لآلام النفس ، والتحدث عن نزعات الفؤاد وخلجات القلب ، فإذا سمعت جريراً يتغزل بالديار ، ويصف لك الحبيبة تخيلت امرأ القيس وسواه من شعراء الجاهلية ، فالكثيب ، والطلح ، والكناس ،

(١) ترى في شعراء العصر كثيراً ممن يخفي ضعف عاطفته بقوة لفظه أو تنميق كلامه فانتبه لهذا .

والأماكن ، وغير ذلك تسمعه في شعر سواه ، ولكنك لا تسمع هذه العذوبة في اللفظ ، على جزالة وفخامة ، ولا ترى هذا الشرف في المعاني على رقة وأنس .

وبهذه الرقة والعذوبة يمتاز جرير ، كما يمتاز بحسن حديثه عن قلبه الملتهب ، وحسن تصويره لعواطفه الثائرة .

وإذا لم يكن من جديد في غزله من حيث الأسلوب والمعاني فليس بضائره ذلك لأن العبقرية الفنية ليست كلها في إيجاد ما لم يكن ، بل هي كثيراً ما تكون في السحر والإحسان .

على أن جريراً لم يخل من ابتكار فقد قيل إنه أول من أرجع الحبيب الزائر خوفاً من الريبة فقال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وإذا شئت أن تتبين سحره في غزله أخذت هذين البيتين اللذين سارا كل مسير ، وقد عُدَّ أولهما أنسب بيت قالته العرب :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وإذا علمت أن ليس فيهما معنى عميق ، أو فكر مخترع ، رأيت أن سحرهما إنما جاء من بديع نظمهما ، ومن هذه المقابلة

بين القتل والحياة ، والقوة والضعف ، فجرير يسحرك في الغزل بمبانيه اكثر مما يسحرك بمعانيه .

وبينما تجد نفسك في هجائه مأخوذاً بضوضاء اللفظ وطنينه ، معجباً بقوة جرسه ، وفخامة تركيبه ، وكثرة الغريب من مفرداته أحياناً ، تجد نفسك في غزله ـ وفي رثائه ـ مسحوراً برقة التركيب ، وبراعة الإيراد ، محباً لهذا اللين في اللفظ والسهولة في التركيب ، غير عاثر على غريب من الألفاظ إلا نادراً . وبينما تجد جريراً يهتك الاعراض ، ويفتري على الناس الكذب ، فتتخيله وقحاً شرساً فاجراً ، تقوم في نفسك صورة ثانية عنه حين تسمع غزله فتراه وديع النفس ؛ رقيق الجانب ، قريح الجفن ، ملتهب القلب ، عفيف اللسان ، لطيف السؤال ، حتى أنك لتكاد تشك أن يكون هذا الرجل قد جمع إلى نفسه المتناقضات ، وهذا جانب من العبقرية غير يسير .

وبعد ، فيسهل عليك أن تتصور جريراً راثياً من أحبّ ، وإنه من اليسر بمكان أن تتحدث عن رثائه بمثل ما تحدثت به عن غزله ، وأن تلمس هذه السلاسة في التركيب ، والحنو في العاطفة ، حينما تسمعه يرثي ابنه سوادة ، أو زوجته خالدة بنت سعد .

وأية حرقة أبلغ من حرقة الرجل الشاعر يرثي كبده وقطعة نفسه ، بل أية عاطفة أعمق من حزن الأب الثاكل ، لا يرى الأَجر على مصابه عزاء للبه ، والزوجِ المفؤود تثيره في كل ساعة أَصوات أبنائه المتضاغين من حوله ، وتهيجه ذكريات حياته المحمودة في نفسه ؟! .

والواقع أَن رثاءه لابنه سوادة ولزوجته أم حزرة صورة ثائرة للحب المضطرم ، والإحساس المتوقد .

ولا عجب بعد ذلك أَن يفوق جرير صاحبيه فيما نذكره لك ، وأَن تُرثى نوار زوجة الفرزدق بما رثى به جرير زوجته أم حزرة .

وكل من قرأ لجرير مراثيه عرف أنه شاعر العاطفة المتألمة ، والأمل الخضيد ، لأنه كان صادقاً في لهفته ، نبيلاً في عاطفته ،

مخلصاً في دمعته . ولم تكن مراثيه غير أَصوات هواه المكلوم ، ولم تخرج قصائده في الحرقة الملوعة ، عن غير النبع الذي صدرت عنه أناشيد حبه المرحة .

وجرير الذي عرف كيف يسحرك ويبهرك ، عرف كيف يشجيك ويحمل إليك عاطفته . فهو إن حدثك عن عظم خطبه بابنه ، ذكر لك أن الأَجر الذي سيناله عند الله لا يخفف من ألم نفسه في مفارقة أشباله ، ولا يعزيه في عظيم مصابه ، ثم يصف لك مبلغ تأثير هذا الأَلم في نفسه من الوجهة الواقعية حتى تعتقد أنه قد رزئ بجسيم من النوازل ، إذ فقد الابن حين أصبح الأَب كفيف البصر ، متهدم الجسم كعظم الرمة البالي ؛ ثم يصف لك حزن كل باكية معوال عليه ، فيشبه حزنها بحزن الناقة التي أخذ فصيلها ، ووضع لها بَوٌّ تخدع به ، فتدر عليه ، وتحن إلى جلده وأوصاله ، حتى إذا عرفت أن لا حياة به ، ثارت هموم صدرها ، ونالها من الأَسى ما الله به عليم .

وإذا حدثك عن زوجته ، ذكر لك حياءه في بكائها ، وزيارة قبرها ، ثم ينتفض ، فيعترف لك بمحبته إياها ، وتوله قلبه ، وما ناله من فقدها ، وهو كبير ، وذوو التمائم من بنيه

صغار ، ثم يذكر لك ذهوله ، ورعيه النجوم ، ويعلل كل ذلك بأنها كانت نعم القرين النفيس ، الذي يضن به على كل شيء ، وأنها عاشت مكرمة غير بخيلة ؛ ولا متكبرة ، لايخشى غوائلها الجار ، ولا يطعن عليها في عرض ولا دين . ويحدثك عن جمالها وسكينتها ووقارها ، وعن وجهها الأغر الذي يزينه الإسفار .

ثم يستسقي لها ، شأن شعراء الجاهلية ، ويدعو لها الله والملائكة ، شأن المتقين من صلحاء الإسلام ، ثم يصف قبرها وينتهي إلى تعزية نفسه فيقول :

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكر عليهم ونهار

وإذا أجملت القول في رثائه قلت : إنه صورة متألمة لحبه المرح ، ووجه آخر لعاطفته وإحساسه ، يورده مورد القوة والتأثير ، فتستبين القوة من أسلوبه وتركيبه ، والتأثير في عاطفته وإحساسه .

هاتان هما الناحيتان اللتان امتاز بهما جرير : ناحية الهجاء ، وناحية الغزل والرثاء ، أو قل إنهما ناحيتا العصبية والعاطفة ، وأما بقية فنون القول فلم يكن اميز من صاحبيه ، بل ربما كانا أفضل منه في بعض الأنواع .

فخره

فأما فخره بنفسه وبقومه فمتصل بهجاء غيره ، وقد ذكرنا لك أنه كان إذا هجا افتخر ، وأذلّ خصمه ، وأقام لنفسه وقومه من الفخار كل بناء شامخ ، على أنه لم يبلغ الفرزدق في فخره بآبائه وأجـداده ، لأنك تعلم أن الفرزدق وجريراً يمتّان في النسب إلى أصل واحد : هو تميم ، وهو أصل شريف نبيل ، ثم يختلفان في الفروع .

فأما التي كان ينتمي إليها الفرزدق فقد كانت أشرف وأنبل .

وإذا افتخر جرير فإلى تميم غاية فخره ، وهو لم يعدم أياماً لبني يربوع - قومه - يفخر بها ، وكان فيهم شدة وبأس في الجاهلية والإسلام ، وقد أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها بنو دارم قوم الفرزدق وبنو ضبة أخواله .

وأظهر ما في فخر جرير اعتداده بنفسه ، فقد كان يرى نفسه أنه البازي المطل على أعدائه ، ينصبُّ عليهم انصبابا وقد أعد الله منه الصواعق على الشعراء ... ثم إن قومه بني تميم ، هم سادة الناس وقد أبى له أن يعاب ماله من ماض شريف فيها ، وأن الملوك لم يجدوا

قوماً أَعز من قومه ولا فوارس أَسرع استبسالا . فهم الحاكون الحامون ، ذوو السوابغ ، النازعون عن ذي التاج تاجه .

وكان يرجع في فخره على الأَخطل إلى مضر جد تميم الأَعلى وفي مضر النبوة والخلافة ، واين تغلب التي حرمت المكارم ، والتي ظلت على النصرانية ، من مضر ، التي سطع فيها نور الإسلام ، ونالت غاية الشرف في حسن الفعال . وإنه ليعجبك أَن ترى جريراً يقيم لنفسه من الشأن مالو شاء لطلب إلى ابن عمه الخليفة أن يسوق إليه تغلب ، عبيدا فيقول :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا

مضر أَبي وأَبو الملوك فهل لكم ياخزر تغلب من أَب كأَبينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا

***

وخلاصة القول في فخره أَنه إذا استطاع أَن يفخر بنفسه والا يكون دون سواه في هذا الفخر ، وأن يذكر مآثر تميم - وهي كثيرة - وأَن يقيم لها أَعظم بيت في الفخر وهو قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

نقول إذا استطاع كل ذلك فلم يكن ليستطيع أن يقيم لنفسه فخراً بآبائه يوازي ما كان للفرزدق ، وإذا ذكرت أن أبا جرير عطية كان بخيلا يرضع الشاة لئلا يسمع شخب الحليب في الإناء فيقدم الضيوف عليه ، وإذا ذكرت أن غالب بن صعصعة أبا الفرزدق كان كريماً شجاعاً سيداً : عرفت أي مستند كان للفرزدق على آبائه ، وعلمت أن جريراً لا يستطيع أن يطاوله في مكارم الآباء .



مديحه

وأما مدائحه فقد كان فيها متاجراً شأن غيره من الشعراء، يعرف من اين تؤكل الكتف ، وقد مدح الولاة والأمراء والخلفاء فأجزلوا له العطاء ، والذي نلاحظه ، أنه مدح القيسية وهم زبيرية ، وأعداء لقومه تميم ، وعرّض بأبناء الزبير ، ومدح بني أمية ، ذلك أن الرجل كان يستمريء العيش في ظلال كل متفضل ، وهو لايبخل على المنعم أَن يصفه بافضل الصفات وأن يخصه بأشرف المزايا ، وإن رجلا لايبالي أَن يمدح الموالي ويسوّيهم بالعرب شرفاً ومحتداً لأهون شيء ، عليه أن يقول لبني أمية بيتا ماطاعت الشمس على أَعظم منه في المديح – كما زعموا – وهو :

ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح

وقد يكون في هذا البيت كذب غير قليل .

ولا تظهر عصبية جرير في مدائحه بمقدار ماتظهر في أهاجيه حين يحتاج إلى إظهار مناقب من يناضل عنهم في معرض الحديث عن أعدائهم .

وهو إذا مدح أطال في صفات الممدوح ، وقد يتجاوز مدح

الممدوح إلى النيل من خصمه ، ثم أنه لايفخر ، ولا يهجو بعكس ما كان يفعل الفرزق الذي لم يكن لينسى نفسه وخصومه ساعة المديح .

ومدائح جرير في بني أمية والحجاج ، أعظم أشعاره في المديح ، وهي لا تخلو من مسحة دينية ، تفسرها لك نفس جرير المؤمنة ، فالخلافة ، والقرآن ، والأحكام ، والجمع ، والأمانة ، والورع ، والهدى ، والبركة ، وما إلى ذلك ألفاظ منتشرة في مدائحه لهم ، وإلى جانب هذه الألفاظ المؤمنة ألفاظ الطلب ، والاستغناء ، والحاجة ، والفضل ، والإحسان ، والعطية ، وما اليها مما تفسره حالة الشعراء في تلك الأيام .

وبديهي أن يفضل الشاعر بني أمية وأمراءهم ، وأن يؤيدهم بلسانه وقلبه ؛ على أنه كان كيسا فطنا لا يكاد يسخط الناس في التعريض بخصومهم إلا نادرا ، وإذا عددت جريراً لسانا ينتمي لحزب ، فإلى بني أمية منتماه ، وقد وصل به الأمر إلى مشايعة الحجاج في رأيه الذي حرض الوليد بن عبد الملك عليه ؛ وهو نقض ولاية العهد التي لسليمان ، وأن يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد العزيز ، ولولا أن قضى الحجاج بعيد ذلك ، وتبعه الوليد ، وثار أمير من بني يربوع بمسلم بن قتيبة المشايع للحجاج فقتله ورضي

سليمان عن بني يربوع قوم جرير ، لولا ذلك كله لقتل جريراً شعره وتحزبه .

ومدائح جرير تستوعب شطراً كبيراً من شعره ، يقل عن الهجاء ، وقد يقارب الفخر الغزل ، وهو يفوق الرثاء كثرةً على كل حال

والسبب في ذلك أن الرجل كان أشد انصرافاً إلى الذود عن كرامته ، وإلى سبّ خصومه من الانصراف إلى أي فن من فنون القول ، وقد كان مما لا ندحة عنه أن يبتدئ شعره في الهجاء والمديح بالغزل ، ثم إنه لولا الحاجة إلى المال لما حط رحله في ساحات الأمراء والخلفاء على الأغلب ، فهذه هي الأسباب التي تبين لنا التفاوت الذي نراه في مقدار شعره بكل نوع من الأنواع .

وبعد أن تعرفت إلى ماسلف من فنون عبقريته ، يسهل عليك أن تفند قول الأعرابي الذي قال :

بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومديح ، وهجاء ، ونسيب ، وفي كلها غلب جرير ، قال في الفخر :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

وفي المديح :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وفي الهجاء :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي النسيب :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وقال محمد بن سلام : وبيت النسيب عندي :

فلما التقى الحيان ألقيت العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله

وتستطيع من ثم أن تقول :

لئن انطلق لسان جرير بهذه الأبيات الخالدة ، فهو لم يبلغ مكانة الأخطل في المديح لالتزام الأخطل مدح خلفاء بني أمية سائر أيامه ، ولم يسام الفرزدق في فخره بآبائه ، وشرف محتده ، ولكنه فاقهما في الهجاء والغزل والرثاء .

بقية أغراض القول

هذه هي المواطن التي صرف جرير عبقريته فيها ، وأفرغ كل ما أوتي من ذكاء ومقدرة في الكلام عليها ولقد شغلته حوادث الأيام ، ووضعيته الخاصة عن الاسترسال فيما جرى على لسانه من وصف وحكمة ، وشكوى الزمان والإخوان ، وفي اعتقادنا أن بقية أغراض شعره ليس لها قيمة شيء يسير مما قال في المديح ، والهجاء ، والفخر ، والغزل ، والرثاء .

ولعل الوصف أحسن قول له يأتي في المرتبة المتأخرة عن الأغراض المذكورة ، إذ أجبره عليه القول في سائر الأغراض ، فقد كان محتاجاً في المديح إلى وصف الناقة ، والغيث ، والصحراء ، وغيرها ، وكان مضطراً في الغزل إلى التحدث بأوصاف الحبيبة والرسوم ، والقلب ، والعين ، وكان مسوقاً في الفخر إلى الكلام عن الحرب ، والسلاح ، والنار ، وقس على ذلك أشباهه .

وأوصافه مادية محسوسة ، ليس فيها استقصاء ، ولا إغراق ، ولا تتبع للمعاني ، وهي بعد ذلك لا تكاد تسمو إلى الآفاق التي حلق فيها من قبل .

فهو إن وصف النجوم التي يرعاها حزناً على زوجته شبه تلك

النجوم بقطيع من بقر الوحش ، واكتفى بهـذا التشبيه ، وإذا استسقى لقبر زوجته دعا له بسحاب راعـد غليظ الصوت عاليه ، ذي مطر مدرار فحسب ، وإذا وصف المنازل شبهها — على مألوف العادة الجاهلية — بوحي الزبور ، وتراه في وصفه يشبه المطي بالقطا في الفلاة المجهل ، والحرب بالحريـق المشعل ، والخصوم بالفراش الطائش ، ونار الحبيبة بلمعان البرق ، وثغرهـا الضاحك بالاقحوان ، وقلبه الواجب بالجناح الخافق .

وإذا حدثك عن الحرب أو الحب أو غيره وصف لك اوشبه بكلام حسن لا تنفر منه ولكنه ليس في الذروة من البلاغـة والإبداع ، لأنك تعثر في شعر الأولين على كثير من أشباه مـا يحدثك عنه فلا ترى في هذه الأوصاف والتشابيه ميزة لجرير على سواه ، إلا أن إيراد هاتيك المعاني كان مستساغ الألفاظ ليس فيه تعسف ولا كلفة وهي حسنة تعد للشاعر في هذه الأغراض

وكذلك تقول عن حكمته وبقية الأغراض التي يمكن أن يعرض لها ، فأنت لا ترى فيها — على قلتها وضآلتها — شيئا يسمو بك إلى أفق عال ، أو يحمل إلى نفسك غير معنى ساذج سطحي :

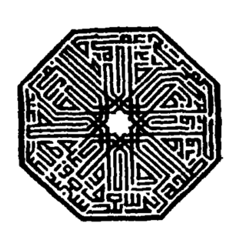
انظر إلى قوله وهو يلتمس الحكمة والعزاء لنفسه عن زوجه إذ يقول

لايلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

وإنه لمعنى متداول ساذج تحدث به الجاهليون من قبل، بل جاؤوا بأبدع منه في معرض العزاء والحكمة، ويشبه ذلك قوله في عدم ائتمان الخليل المتلون :

لاتأمنن ، فإني غير آمله غدر الخليل إذا ما كان ألوانا

ونحب أن نختم الكلام عَلَى عبقرية جرير بتقرير هذا الرأي الذي نعتقده ، وهو أن انصراف شاعرنا إلى أغراض معينة ، وقصوره في أغراض أخرى ، كان أثراً من آثار عصره ، ونتيجة من نتائج حياته الأدبية التي كان يحياها ، ولو أنه أحيط بأحوال وظروف غير التي أحاطت به ؛ لأنتج غير هذا الذي تبيناه من آثار عبقريته الخالدة .



*

مميزات عبقريته

معانيه • خياله • ألفاظه • أسلوبه

تدرس شعر جرير فتستوقفك معانيـــه وخيالاته في مواطن مختلفة في الحكم ، متباينـــة في الإغراق وفي الإبداع ، فأنت في بعض هذه المواطن واجد معاني لايكاد يرتفع فيهـا الشاعر عن غيره من الشعراء ، بل ربما فضله فيها سواه ، إذ لم تعتمد على خيال واسع ، ولا على إغراق في التفكير ، وهذه المعاني هي التي يتشارك فيها الشعراء كافة ، فهم إذا أطروا عظيماً تحدثوا عن جرأته وإقدامه وإدراكه للثأر وبناء أجداده للمكرمات الخالدة ، وتقيله طريقهم في إذلال الخصوم ، وقهر المعادين والمناوئين ، أضف إلى هذا مايمكن أن يمدح به المرء من سخاء يتناول الرائح والغادي ، وحفظ للعهد والذمار ، وقصر الطرف عن محارم الجار،وإغاثة الملهوف ، وإجابة دعوة من استجار ....

وأشباه هذا كثير ، وهو ، بعد ، ملك مشاع للشعراء في الفخر والحماسة والمديح .

وموطن آخر لا يكاد يختلف فيه الشعراء من حيث الأسلوب وهو التحدث عن الأحبة الراحلين ، وديارهم الدارسة ، التي تبعث في النفس ذكريات مختلفة والكلام عما يتبع هذا من غزل ووصف وحنين ولوعة وشكوى ، فالرسوم التي يناجونها عافية لم يبق منها إلا كخط الكتابة ، والأطلال التي يستوقفون عليها أصحابهم قد استدرت مآقيهم فليبكوا وليستبكوا ، حنيناً إلى من كان فيها ، وتشوقاً لأيام الصبا العذبة .

وأما القلوب وما يحز بها من ألم وحب ، وما تصبو إليه من هوىً ورغبة ، وما تدعو به من الدعوات لتحيا الأرض بعد موتها فيعود إليها أربابها ، وما يساور النفس من لهف وحسرة ، فكل ذلك تراه في شعر الشعراء ، وهو مقدمة لقصائدهم في المديح والحماسة والوصف والهجاء وما أشبه .

وموطن ثالث يشترك فيه الشعراء ، ولا يخرج عن استقطار دمع العين على فقيد كان عزيزاً في قومه ، محمود الشمائل ، مطري الخصال ، فلما نزل به الموت جلت المصيبة فيه ، ولم تُدفع بما يرجو الأحياء ، أن يقدموه من فداء .

كل هذه المواطن وغيرها معانٍ يشترك فيها الشعراء المتقدمون

في الجاهلية وصدر الإسلام ، وإنما يتمايزون بقوة العاطفة أو ضعفها ، وحسن الإيراد أو قبحه ، ومتانة الأسلوب ، أو ركاكته ، وما شابه ذلك وهذه أماكن التفريق والتفضيل بينهم ، إذا تساووا في المعاني والأخيلة ، وما نحسبهم بمتساوين .

وأنت إذا حشرت جماعة من الشعراء فيما ذكر لك لم تستطع أن تحشر جريراً في زمرتهم ، لأنه وإن تقيل سبل الماضين في الطريقه فابتدأ القصيد بالغزل ، ثم تحدث عن غرضه ، فلقد كان ، كما تبينا ذلك من قبل في الكلام على عبقريته : أشد عاطفة ، وأنبل شعوراً ، وأرق حنيناً ، وأدق فكرا ، فهو في أفق أوسع ، وفي سماء أعلى من التفكير والعاطفة والتأثير ، سواء أكان ذلك في غزله أو رثائه أو غيره .

فأما هجاؤه فيشعرك بأخيلة ومعانٍ ، هي غاية الغايات في الشتم والسباب ، فهو إن تناول خصماً وصمه بأقصى ما يمكن أن يوصم به دنيء ، وعراه من المفاخر والمكارم ، وإن كان فيها عريقاً ، معماً مخولاً ، ثم يعرض لقوم خصمه فيفتري الكذب على ماضيهم ويسِم بالذل حاضرهم ، ويحملهم من النقائص ما يبقى سبة على مستقبل الأيام ، وإذا وقع على مثلبة حقيقية تحدث عنها

وذكر يومها وحمل على صاحبها ، فشهر به ، ولم ينس ، وهو يذكر مخازي خصومه أن يتحدث عن مكارمه هو ، وعن شرف محتده ، فيقارنه مقارنة تكون فخراً له وعاراً على خصمه .

ومعانيه في الهجاء مستفيضة كثيرة لا تستطيع إحصاءها ، فهي تقوم على ذكر ما كان يكره العرب وما كانوا يعيّرون به أربابه كالجبن والبخل والهزيمة ، والإحجام عن نجدة المستنجد ، والتغاضي عن دعوة الملهوف وربما استرسل جرير في الطعن على الأعراض حتى يجعل خصومه أغماراً حمقى لا يفرقون بين الخير والشر ، ولا يميزون النافع من الضار ، ولا المكرمة من العار .

وإذا تجلت لعينيه مفخرة من مفاخر خصمه ، ليس في الإمكان إخفاؤها ، عمد إلى ازدرائها وأظهر أنها من الضآلة بحيث لا تذكر أمام ما لَه من مفاخر ، ثم يأخذ بتعظيم ما يتعلق به ، واستصغار ما يتعلق بخصمه .

ونستطيع أَن تقول : إن أَهاجيه قصصُ معائبَ أَو قاموسُ شتائمَ فيه إيجاز تارةً وتطويل تاره ثانية ، وهذه القصص معتمدة على خيال يستمد عناصره من المادة المحيطة به ، ويستعين بالحواس على تأليف الصور والأشكال والألوان .

وهنا يحسن بنا أن نلتفت إلى أثر المادية في معانيه، وانطباعات الحس في قصائده وتشبيهاته ، حتى أنك لا تكاد تجد صورة من صوره الشعرية غير معتمدة على الحس والمادة .

ولقد كان في حسه قوياً مع تأثره بما أحيط به، فإذا انبسط خياله ، وألف صوراً مختلفة الروعة والحسن ، فإنك واجد أن هذا الخيال لم يعتمد في تشبيهاته واستعاراته إلا على نتاج بيئته ، فهو لم ينسلخ عنها في جميع مواده الأولية الأصلية ، ليصوغ ما لديه من تشبيه واستعارة .

وكان تأليف خياله للصور الشعريه ، تأليفاً لا تجد عليه أثر التكلف والعسر ، ولا أثر الصنعة التي يتعهدها الشاعر بالنحت والصقل والتهذيب .

وهذا الحكم يغلب عليه في شعره ، حتى أنك لترى في ديوانه من القصائد التي تبلغ الثمانين أو المائه ، مايتدفق تدفقا ، كأن الشاعر يغترف من بحر لا قرار له، ذلك أن خياله وحسه يزخران بالانطباعات التي يجري بها اللسان في سهولة ويسر .

وليس معنى هذا أنه لم يكن يتعمد التهذيب والصقل ، بل نحن نذهب إلي أنه في بعض أشعاره المطولة التي كان يمدح

بها أو كان يناقض بها خصومه ، والتي فضحت أقواماً وأذلت آخرين ، كان يعتمد فيها على التهذيب والتنقيح فجمعت إلى جودة الطبع حسنَ الصنع .

وكتب الأدب تحدثنا أنه حينما نظم قصيدته الدامغة في راعي الإبل عمد إليها فهذب منها ما هذب ، وحذف ما حذف حتى استقامت له على ما نرى .

فإذا أضفت إلى ما تقدم من قوة الحس والتأثر بالمادة ، وانتزاع التشابية من المحيط .

وإذا أضفت إلى ذلك نفسا متقدة ، وروحاً وثاباً ، وقلباً ذكياً ، وأنفاً حمياً ، رأيت أي معين يستمد منه الخيال لصوغ المعاني وإبداع الصور ، وعلمت أن جريراً كان يقرن إلى دقة الحس وحدّته ، رقةَ النفس وشدتها .

وإذا ذكرت عصبية الجاهلية في طبعه ، وأنه كان قد تأثر بالقرآن إلى حد بعيد ، وجدته قد جمع إلى (مادّية) الجاهلية ، وخصائصها (معنويةَ) الإسلام ومزاياه ، وأنه وإن خشُن وقوي وأكثرَ من معاني البادية ، فلقد كان له من رقة الإسلام وسهولته واعتداله نصيب كبير ، فجمع في كثير من قصائده وضوحاً تاماً .

على أنك تشعر بغموض معانيه في شطر من شعره ، آثر فيه الجزالة على الرقة ، والقوة على اللين ، والواضح من شعره : بين الغرض ، مشرق المعاني ، فُضِّل فيه بتفضيل اللفظ السهل على القوي الجزل .

وليس معنى هــذا أنه لم يكن رصين البناء ، متين التركيب ، خاليًا شعره من اللفظ الغريب ، بل كان له من كل ذلك حظ كبير في نقائضه ومدائحه ومفاخره وأهاجيه ، حتى ملئ قسم منها بالغريب القوي الجزل ، لأَنه محك العبقرية وسعة الاطلاع ، والقدرة على الرصين الجزل من اللفظ والأسلوب في القديم[1] .

ولغته على كل حال أيسر من لغة صاحبه الفرزدق ، وأسلوبه من النفس أقرب ، ولعل ذلك أثر القرآن في شعره ، وأثر الطبع الرقيق في لغته فلقد صُفي هذا الشعر ، ورقت لغته ، فقل الغموض في معانيه بالنسبة لشعراء عصره ، وخلا من الكلام المدخول ، والجمل الكريهة ، والمعاظلة حتى أصبح شعره أكثر ذيوعًا من شعر صاحبيه ، وأبعد سيرًا ، ولهذا قيل إنه أشعر عند العامة ، والفرزدق أشعر عند الخاصة .

وكان جرير في سهولة ألفاظه ، ويسر أسلوبه يستعمل الألفاظ القرآنية الإسلامية ، في كثير من الأحيان ، وينظم أَو يشير إلى كثير

(١) أنظر حكم ابن شرف القيرواني عليه في أحكام الأُدباء عنه .

من معاني القرآن ، وهذا مجال الإشارة إلى ثقافته الدينية الواسعة .

وتلاحظ على شعر جرير أنه كثير الترديد لبعض الألفاظ والمعاني، وبديهي أن يكثر المرء من ذكر ماله علاقة بقلبه وحبه ، وأماكن ذكرياته المعسولة .

ونلاحظ عليه أنه كان في ترديد أسماء الأماكن يدعو لسائر المواضع التي تشابه أمكنة الذكريات بالسقيا والحيا إكراماً لموضع صبوته ومهد هواه .

على أنه لم يكن يردد الكلمات لما فيها من جمال الذكرى وحسن اللفظ فحسب ، بل كان يردد في بعض الأحيان كلمات فيها قبح وهجاء ، وقد يكرر لاستثارة من يخاطبه او للإزدراء به ، وأغراض التكرير كثيرة متعددة .

وتلاحظ على أسلوبه أنه بينما كان يماشي الطريقة القديمة في تقديم الغزل على الهجاء أو المديح أو غيره ، يتنكب هذا الطريق في بعض من قصائده ، فلا يتغزل ولا يحيي الدار ولا يصف ، بل يبدأ بالغرض الذي سيقت إليه القصيدة ، فيفاجئك بالهجاء أو المديح أو الفخر وهذا التنكب عن سبيل المتقدمين يمكن أن يعد تجديداً في الأسلوب ، ولكنه وإن جدد من هذه الناحية فهو

لم يقصر شعره على طريقتها ، بل ساير أسلوب المتقدمين في معظم شعره ، وهنا ننتبه إلى أن جريراً هو الذي سن هذه السنة ، فلما جاء من بعده كأبي نواس من المجددين تنكبوا طريق المتقدمين فعابوا على من بدأ شعره بأسلوب الجاهليين الأولين ، ولعل جريراً كان يؤثر هذا التجديد ولكن أذواق المعاصرين ، وميل الناس إلى القديم وتعلقهم بأذياله في عصر بني أمية ، حمله على مسايرة عصره كيلا يؤخذ عليه ذلك مطعناً يستغله خصومه الكثيرون ، فأرسل شطراً عظيماً من شعره على الطريقة القديمة المألوفة وسجل الطريقة الجديدة بمقطوعات في الهجاء والمديح وغيره .

وترى في أسلوب جرير ظاهرة تكثر في شعر العباقره الذين لا يريدون أن يلتمسوا المدخل من الغزل إلى المديح أو إلى الهجاء فهو بعد أن يبدأ مقدمته بالغزل على مامر ، ينتقل فجأة الى الغرض الذي يريد ، دون أن يمهد لذلك بما يسمونه حسن الانتقال ، فهو لايدور بالقارئ من مكان لآخر ، وما يزال به حتى يجد المدخل إلى غرضه الجديد بل يقتضب الكلام اقتضاباً شأن كثير من المطبوعين .

على أنه قد يجد في بعض الأحيان رابطةً تختلف قوة وضعفاً

وتصل بين المقدمة والغرض الجديد ومن هنا نرى جريراً لا يلتزم وحدة الموضوع في قصيدة ، والقصيدة عنده يمكن أن تحتوي على كثير من الأغراض كالغزل ووصف الدار والناقة والصحراء والمدح والفخر والهجاء في وقت واحد ، وأمثال هذا كثير في ديوانه ، وهذه كما تعلم طريقة الجاهلية .

وكان أهل الجاهلية في التزامهم وحدة الموضوع في القصيدة ، يلتزمون وحـدة البيت ، وكانوا يعيبون على من يعلق معنى بيت بآخر يليه ، وكان لزاماً على الشاعر أن يتم المعنى في البيت نفسه فإذا علق خرج على وحدة البيت وكان ذلك نقصاً في صنعته .

والتزم جرير وحدة البيت إلا أنه لم يتقيد بها ، فقد علق معنى بيت بآخر يليه ، وكان ذلك قليلاً في شعره .

وتلاحظ في أوزان جرير أنها الأوزان التي كان يغلب استعمالها في الجاهلية ، وأما قوافيه فتشاهد الأبيات تنصب إليها وتنحدر انحداراً ، كما أنك لا تجد فى شعره أبنـاء علة ولا في قوافيه تقلقلاً ولا اضطراباً .

ولكنك تشاهده لا يلتزم ما قرره علماء العروض المتأخرون من وجوب الامتناع عن تكرير القافية قبل سبعة أبيات فقـد

كان جرير أعلى من ذلك ، وسنرى أنه كرر القافية ولم يفصل بينهما إلا بيت واحد وذلك نادر في شعره .

أما صنعته البديعية ومحسناته فقد ورد في شعره منها كثير وإن لم يكن متعمداً ، كالتوشيح [1] والجناس الناقص أو الطباق أو سواه ونرى بعضه مما يستشهد به علماء البديع الذين يرجعون هذا العلم إلى الجاهلية ويقولون — وهو الحق — إن البديع فن قديم تطور مع الأيام فلم يكن مسلم بن الوليد ولا جماعة العصر العباسي بأول من تكلم في الصناعة البديعية [2] .

وكما ترى فريقاً من علماء البديع يستشهدون بأبيات من شعره ويعدونها كنواة لعلم البديع ، فكذلك تشاهد علماء اللغة وقواعدها يجدون في شعره — كشعر صاحبه الفرزدق — مستنداً ومؤيداً لكثير من آرائهم التي يسطرونها في مباحثهم المختلفة .

هذا مجمل القول في شعر جرير ، تبينا منه معناه ومبناه ، وإنه لمن المؤسف المؤلم أن يكون نتاج هذه العبقرية منصرفاً أعظم الانصراف إلى الهجاء المقذع والكلم الفاحش ،

---

(١) هو التمهيد للفظ القافية بما يشعر بها .

(٢) أنظر دراسة شعر صريع الغواني للمؤلف ص ١٣٨ .

وإنه لما يشجي النفس أن يكون من الأمانة في الحديث تسطير ما نشير إليه من مواطن عبقرية الشاعر ، ولكننا نقتصر تنزيها للأنامل والأسماع والعيون .

وإنه لمن الصعب على من يحاول تنزيه عينه وسمعه وقلمه أن يتحدث بما ينكر ؛ ولكن أدب بني أمية الواقعي يحملنا على الإيراد ، والتنزه يحملنا على الاقتصاد ، وفي الديوان للراغب ماينقع الغلة ، ويروي الصدى .

*

استطلاع آفاقه

مرّ معك المجمل من الكلام على شعر جرير وتبيّنت الأحكام التي أطلقناها عليه ، ومن الحق أن تلمس بيدك المواطن التي دعت إلى تلك الأحكام .

وهذا بحث نشير فيه إلى الأماكن البارزة من شعره وسترى أن جريراً وإن شارك الشعراء في معانيها ومبانيها ، وفي طريقة الإيراد والأسلوب ، فقد ابتكر وأتى بما لم يجر على لسان أحد من قبله .

وأنت تذكر أنه قال أربعة أبيات في الفخر والمديح والغزل والهجاء ، قال العلماء إنها أحسن ما قيل في بابها إلى زمنه وقد تقدمت في الكلام على عبقريته .

أما نحن فلا نريد أن نؤمن بما قالوا كل الإيمان ، لأن الشعر فن قائم على الذوق ، والأذواق تختلف وتتباين بحسب اختلاف مقاييس الزمن والبيئة والثقافة ، فليس أديب العصر مقيداً بأحكام الماضين ، فرب حكم عممه صاحبه ، ولم يدعه إلى التعميم

استقصاء ولا دراسة ، وإنما دعاه إليه هوى ملك عليه فكره ، وسحر أخذ من قلبه مأخذه لسماع بيت واحد لا أكثر .

وهنا تختلف أذواقنا وأذواق المتقدمين ، وإن نعجب فمن طائفة تؤلف الكتب ، وتدرس الأدب ، وما تزال تعيش بأذهانها في العصور المتقدمة ، وإن كانت تعيش بأبدانها في هذا القرن العشرين ، وإن نضحك فمن مؤلف يقرر أن أمدح بيت قالته العرب في القديم والحديث قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وهو يعلم أن المعاني تتطور مع الأزمان ، وأن الإغراق تطور حتى وصل إلى الإحالة ، وهو يعلم - أو لا يعلم - أن ابن هانئ قال في المديح :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

وما عرف بيت فيه من الإغراق والمبالغة في المديح ما في قول ابن هانئ .

فهذا في الإغراق والمبالغة أعظم من بيت جرير ، وإن أنكر منكر إغراق جرير في بيته قلنا له : إن في بيت جرير لإغراقاً عظيماً ، فليس بنو أمية خير من ركب المطايا ، وليسوا أندى العالمين

كفاً ويداً ، فإن الله قد شرف سواهم عليهم ، وفي بيت النبوة من الشرف مالا يطاول .

وكذلك تقول في بقية الأبيات وسيمر بك ما قد يحملك على تغيير رأيك في القول الذي أطلقه بدوي مجهول ، فاستمسك به كل أديب معروف .

* * *

اما معاني جرير الرائعة فمنها قوله في التحدث عن الطبائع الغريزية في النفس ، وميل الناس إلى أشباههم :

ان الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للئام نصور

وقوله في الهجاء المقذع اللاذع عن طريق التهكم والزراية :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

وقوله في المقارنة بين الضدين وفيه من القوة ماترى :

وابن اللبون إذا مالزّ في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وقوله في خيبة الرجاء والأمل الكاذب :

رأيتك مثل البرق يحسب ضوءه قريباً وأدنى ضوئه منك نازح

وقوله في هجاء الذكور والإناث من خصومه :

أما الرجال فجعلان ونسوتهم مثل القنافذ لاحسن ولا طيب

وهذه أبيات يتمثل بها الأدباء في القديم والحديث ، هي ولا شك أمثال خالدة على الأيام ، وغيرها كثير ، فقد قيل إن عبد الملك بن مروان سأل جلساءه هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم بيت شعر ودّوا أنهم افتدوا منه بأموالهم ، وشعر لم يسرهم به حمر النعم ؟

فقال له أسماء بن خارجة : نحن يا أمير المؤمنين .

قال وما قيل فيكم قال قول الحارث بن ظالم :

وما قومي بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشعر الرقابا

فوالله يا أمير المؤمين إني لألبس العِمامة الصفيقة فيخيل إليّ أن شعر قفاي قد بدا منها . وقول قيس بن الخطيم :

هممنا بالإقامة يوم سرنا مسير حذيفة الخير بن بدر

فما يسرنا أن لنا به حمرَ النّعم .

وكان هانئ بن قبيصة النميري في المجلس فقال : بل أولئك نحن يا أمير المؤمنين، قال فينا جرير :

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
ولو وُضعت فقاح بني نمير على خبث الحديد إذن لذابا

والله لوددنا أننا افتديناه بأملاكنا . وقال فينا زياد الأعجم

لعمرك ما رماح بنى نمير   بطائشة الصدور ولا قصار

فو الله مايسرنا بهحُمر النّعم .

***

ومن هذه القصة وأَشباهها ترى أن مقياس الأفضل والأقبح يتبع نفس الرجل فربما استحسن المرء مالا يستحسنه سواه .

وانظر في هذا البيت الذي هجا به جرير الأخطل فقال :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى   حك استه وتمثل الأمثالا

فقد كان جرير يقول : قلت فيهم بيتاً لو طعن أحدهم في استه لم يحكها .

ويقول أَبو هلال العسكري : لو قيل أن أهجي بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو :

ولو تُرمى بلؤم بني كليب   نجوم الليل ماوضحت لساري

ولو يرمي بلؤمهم نهار   لدنّس لؤمُهم وضَحَ النهـــار

وما يغدو عزيز بني كليب   ليطلب حاجـة إلا بجار ؟

ومثل هذا قول الآخر :

لو أن عبد القيس ترمى بلؤمها   على الليل لم تبد النجوم لمن يسري

وكانوا يزعمون أَن أَهجى بيت قول الأعشى .

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وقيل بل قول جرير :

إن السليطي خبيث مطعمه   أخبث شيءٍ حسباً وألأمه

محرنفشاً بحسب لا نعلمه   (است السليطى سواء وفمه)

خنزير بر سيئ تنسمه   هل لك في بيض خصي تلقمه

ويزعمون أن أهجى بيت قول الحطيئة في الزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقيل بل قول الفرزدق بجرير :

أنتم قرارة كل معدن سوءة   ولكل سائلة تسيل قرارا

وقيل بل قول الأخطل لجرير [1] :

مازال فينا رباط الخيل معلمة   وفي كليب رباط اللؤم والعار

قوم إذا استنبح الاضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

فجعلهم بخلاء ، وأمهم خادمهم ، يأمرونها بكشف عورتها لتبول على النار بخلاً بالماء ، وجعل نارهم من القلة بحيث تطفئها بولة ، وأغرى بينهم وبين المجوس الذين يعظمون النار . وقيل بل أهجى بيت قول الطرماح :

(١) نهاية الأرب ج ٣ ص ٢٧٦ .

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

وقيل قول الأعرابي :

اللؤم أكرم من وَبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا ... من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قَودا

وللشعراء في الأهاجي معانٍ لاتحصر

وقد قالوا إن خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها ، واختار أبو العباس قول جرير :

لو أن تغلب جمعت أحسابها ... يوم التفاخر لم تزن مثقالا

وإنما فضل قوله : فغض الطرف ... لأن فيه تفضيلا بين نمير وبين كعب وكلاب ولأنه يخلو من الفحش في القول

أما أمدح بيت قالته العرب فقد زعم أنه قول جرير في عبد الملك : .

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

وأنكر ذلك جماعة ، لما تعلم من نسبية الأحكام في الأدب ، وأن ما يعجبك قد ينكره سواك فقالوا بل أمدح بيت هو قول زهير في هرم بن سنان حين قال :

لو كنت في شيء سوى بشرٍ ... كنت المنوّر ليلة القدر

وقيل بل أَمدح بيت قول النابغة في المنذر :

أَلم تر أَن الله أَعطاك سورة ... يرى كل ملك دونها يتذبذب

بأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقيل بل قول الأعشي :

فتىً لو ينادي الشمس أَلقت قناعها ... أو القمر الساري لأَلقى المقالدا

وقيل بل قول زهير :

تراه إِذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أَنت سائله

وقيل بل قول الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد

وقيل بل قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بعزهم أو مجدهم قعدوا

وقيل بل قول الأخطل :

شُمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأَعظم الناس أحلاماً إِذا قدروا

وقيل بل قول أَبي الطمَحان القيني :

أضاءت لهم أَحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

والمغالاة لا تعرف حداً ، والإِعجاب لا يقاس بمقياس ، فربما لم تستسغ ما نستسيغ ، والأَحكام بنات الأذواق ، وقديماً اختلف

الناس في ذلك فما استطاعوا تحديد الإعجاب والإكبار .

أما أفخر بيت قالته العرب ، فزعم أنه قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

وقيل بل قول الفرزدق :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وقيل بل قول عمرو بن كلثوم :

ونحن الحاكمون إذا أطعنا   ونحن العائفون إذا عُصينا
ونحن التاركون لما سخطنا   ونحن الآخذون لما رضينا

وقيل بل قول السموءل :

وأسيافنا في كل شرق ومغرب   بها من قراع الدارعين فلول

وقيل غير هذا البيت من قصيدته كقوله :

إذا سيد منا خلا قام سيد   قؤول لما قال الكرام فعول

وقيل بل قول جرير :

أنا المحامي إذا ما الخيل شمّصها   وقع القنا بسروجٍ فوق أُلْبَاد

وقوله :

أنا الدهر يُفْني الموتَ والموتُ خالدٌ   فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

وأما أغزل بيت فقيل إنه قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقيل : بل أقواله الآتية من قصيدة واحدة ، وما نعتقد أنها تبلغ مبلغ البيتين الأولين وهي :

فلما التقى الحيان أُلقيَت العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله

وقال اللواتي كن فيها يلمنني لعل الهوى يوم المُغيْزِل قاتله

فلو كان هذا الحب حبًا سلوته ولكنه داء تعود عقابله

فهيهات هيهات العقيق ومن به وهيهات خل بالعقيق نواصله

وقيل قول جميل :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

وقيل قول الأحوص :

إذا قلت إني مشتفٍ بلقائها وحمّ التلاقي بيننا زادني سقما

وقيل قول عمر بن أبي ربيعة :

فتضاحكن وقد قُلن لها حسن في كل عين من تود

وقيل قول امرئ القيس :

وماذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتّل

وهذه أمثلة لم نجاوز في إيرادها عصر جرير وما تقدمه ، ولو أوردنا لك شعر المتأخرين لرأيت في ذلك العجب ، والذي يهمنا أن تكون تلك الأبيات السالفة دليلاً واضحاً على اختلاف الأحكام باختلاف الأذواق فليس لامرئ أن يحمل سواه على رأي من أشباه ما ذكرت .

وفي كتب الأدب كثيرٌ من الأحكام ضربنا عن استقصائها صفحاً لأنها كانت لا تستندُ في الغالب إلا على هوى وإعجاب مفاجئ ، فليس لمتأخر أن يقلد متقدماً دون أن يعمل الفكر ، وأن يلمس أثر الشعر في قلبه وفكره .

* * *

فإذا تبينت هذا حسن أن تتبين خصائص شعره ، وأن تلمس أماكنها

فأما أثر المادية في شعره فتراه في تشابيهه ومجازاته واستعاراته المختلفة ، فمن ذلك تشبيهه ولد الناقة الضعيف الذي لم تتم أشهر حمله بعروق شجر ضعيف ينبت في الأراضي الرخوة ، وهو الرُّخامى :

وأجلاد مضعوف كأن عظامه عروق الرُّخامى لم تشدد مفاصله

ومن ذلك تشبيه المطر بقوله :

سقتها الثريا ديمة واستقت بها غروبَ سِماكيّ تهلل وابله

ترى لحبيِّهِ رباباً كأنه غوادي نعام ينفض الزف جافله

وقوله في مدح عمر بن عبد العزيز :

كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر

يرجوك مثل رجاء الغيث تجبُرُهُمُ بوركت جابر عظم هيض منكسر

أخوالك الشم من قيس إذا فزعوا لا يُعصمون حذار الموت بالحذر

ومن استعاراته قوله وفيه المقابلة :

تحيي الروامسُ ربعها فتُجِدُّه بعد البلى وتميته الأمطار

وأما نفسه الشديدة المتقدة ، وروحه الوثاب ، فتراه في أقوال له منها :

لست بذي دحس[1] ولا تعريض إلا جهار المنطق المخفوض

أفقأْ عين الشانئ البغيض فقء الطبيب قرحة المريض

وقوله :

إن تضرساني[2] تجدا مضرّسا قد لبس الدهر وأبقى ملبسا[3]

---

(١) فعل الشي خفية (٢) تجرباني (٣) أبقى بقيته .

خلقت شَكْساً[1] للأعادي مشكساً   أكوى الأسرَّين وأقطع النسا
من شاء من حر الجحيم اقتبسا

وقوله للفرزدق :

أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد   فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله
أمن سفه الأحلام جاؤوا بقردهم   إليّ وما قرد لقرم يصاوله

وقوله :

عوى الشعراء بعضهم لبعض   عليَّ فقد أصابهم انتقام
كأنهم الثعالب حين تلقى   هزبراً في العرين له انتحام[2]

وأما رقة نفسه فتراها في أماكن الغزل والرثاء حين يقول :

بنفسي من تجنبه عزيز   عليَّ ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه   ويطرقني إذا هجع النيام
فدى نفسي لنفسك من ضجيع   إذا ما التجَّ بالسنة المنام
أتنسى إذا تودعنا سليمى   بفرع بشامة سقي البشام
فلو وجِد الحمام كما وجدنا   بسلمانين لاكتأب الحمام
فما وجدٌ كوجدك يوم قلنا   على ربع بناظرة السلام

وقوله :

بتنا ترانا كأنا مالكون ألا   ياليتها صدقت بالحق رؤيانا

(١) شرس الخلق .   (٢) اعتزام .

واما اثر تدينه وإسلاميته ، والفاظه القرآنية فتراها حينما يعيب على الأخطل نصرانيته ، وعلى الفرزدق مشايعته للأخطل ، وفي غير هذه الأماكن كقوله في رثاء زوجته :

صلى الملائكة الذين تخيروا   والصالحون عليك والأبرار

وعليك من صلوات ربك كلما   نصب الحجيج ملبدين وغاروا

وقوله في رثاء ابنه ، وفيه إشارة لما ينال الصابر من الأجر :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم   كيف العزاء وقد فارقت أشبالي

وفي رثاء يحيي بن مبشر :

صلى الإله عليك يا بن مبشر   أنّي قتلت بملتقى الأجناد

وقوله في هجاء التيم :

ولو علم ابن شيبة لؤم تيم   لما طافوا بزمزم والحطيم

وفي هجاء الفرزدق :

ألا قبح الله الفرزدق كلما   أهلّ مصلٍ للصلاة وكبرا

فلا يقربنّ المروتين ولا الصفا   ولا مسجد الله الحرام المطهرا

فإنك لو تعطي الفرزدق درهما   على دين نصرانية لتنصرا

وحينما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق عن المدينة بعد أن أجله ثلاثًا وقال الفرزدق :

أأوعدني وأجلني ثلاثاً كما وعدت لمهلكها ثمود

قال جرير :

نفاك الأغرُّ بن عبد العزيز بحقك تُنفى عن المسجد
وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضَلِلت ولم تهتد
وقد أُجِّلوا حين حل العذاب ثلاث ليالٍ إلى الموعد

ويظهر تعلقه بألفاظ الإسلام حتى في الغزل بمثل قوله :

يا أخت[1] ناجيه السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

وقوله :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردي عليّ فؤادي مثلما كانا

وقد لاحظت في معظم ما مر معك - إن لم يكن في كله - وضوحاً تاماً فيما ذهب إليه الشاعر ، وألفاظاً لينة سهلة ، كما رأيت إلى جانبها ألفاظاً بدوية قوية فيها شيءٌ من القريب .

ولاحظت في شيءٍ مما مر من الغزل ترديده لبعض الألفاظ كترديد البشام ، والحمام .

---

(١) وفي رواية (يا أم ناجية) أو (يا آل ناجية)

ومن ترديده في معرض الهجاء والتحقير ما تراه في هذه الأبيات المتوالية التي لا يفرق بينها بيت :

هلا أدرأتم سوانا يا بني لجأٍ — أمراً يقارب أو وحشاً لها غرر
أو تطلبون بتيم لا أبا لكم — مَنْ تَبْلُغ التيمُ أوتيم لها خطر ؟
ترجو الهوادة تيم بعد ما وقعت — صماء ليس لها سمع ولا بصر
قد كانت التيم ممن قد نصبت له — بالمنجنيق وكلاً دقه الحجر

ومن الترديد للاستثارة أو الازدراء قوله لزيق وقد زوج الفرزدق ابنة له فقال :

يازيق أنكحت قيناً باسته حمم — يازيق ويحك من أنكحت يازيق
يازيق ويحك كانت هفوة غبناً — قينا[1] قفيرة أم بارت لك السوق

ومن ترديده إقامة للوزن وتجميلاً للنسيب . واستعذابا للفظ :

إذا سايرت أسماء يوماً ظعائنا — فأسماء من تلك الظعائن أملح
ظللن حوالي خدر أسماء فانتحى — بأسماء موّار الملاطين أروح
صحا القلب عن أسما وقد برّحت به — وما كان يلقى من تماضر اروح

أما سيره على الطريقة القديمة في البدء بوصف الأطلال والرسوم ، والتحدث عنها ، والكلام على الأحبة ، والتغزل

(١) القينان الحدادان ويريد بهما الفرزدق وغالبا ، وقفيره أم صعصعة .

بهن ، فواضح في كثير من مطالعه ، إذ يشبه الأطلال بالخط والكتابة ، ونلاحظ مع ذلك أنه كان يشبه الرسوم بأحرف مسماة بعينها كالكاف والميم واللام والألف ، وهو إنما يريد تشبيهها بالكتابة مطلقاً ، وقليل بل نادر من جاء قبله فشبه بالأحرف المسماة ولعل ذلك لشيوع الأمية في الجاهلية ، وذيوع الكتابة في الإسلام ، فمن ذلك قوله :

ألم على الربع بالترباع غيّره
ضرب الأهاضيب والنآّجة العُصُف

كأنه بعد تحنان الرياح به   رَقٌّ تبين فيه اللام والألف

وقوله :

حي الديار كوحي الكاف والميم   ما حظك اليوم منها غير تسليم

إذ أنت صادٍ بنبل جفن مقتتل   والشرب يمنع من صديان مهيوم

وقد بلغ في محاكاة الأقدمين مبلغ الآخذ المستعين باللفظ والمعنى بله الأسلوب إذ يقول :

تباعد هذا الوصف إذ حل أهلها   بفوّ وحلت بطن عرق فعرعرا

وشبيه بهذا الإيراد والكلام قول عنترة :

كيف المزار وقد تربع أهلها   بعنيزتين وأهلنا بالغيلم

وقول امرئ القيس :

وحلت سليمى بطي فو فعرعرا

وأما اقتضابه بعد وصفه الأطلال والرسوم ، وبعد التغزل فمثل قوله:

ما هاج شوقك من رسوم ديار   بلوى عنيزة أو بصلب مطار

أبقى العواصف من معالم رسمها   شذبَ[1] الخيام ومربط الأمهار

أمن الفراق تعبت يوم عنيزة   كهواك يوم شقائق الأحفار

ورأيت نارك إذ أضاء وقودها   فرأيت أحسن مصطلين ونار

أما البعيث فقد تبين أنه   عبد فعلّك في البعيث تماري

واللوءم قد خطم البعيث وزمت[2]   أم الفرزدق عند شر حوار

إن الفرزدق والبعيث وأمه   وأبا البعيث لشر ما إستار[3]

ولقد لاحظت اقتضاب الشاعر وطفرته من الغزل الى الهجاء

مابين الرابع والخامس . ومثله في المطلع والاقتضاب :

هاج الهوى وضمير الحاجة الذِكَرُ   واستعجم اليوم من سلّومة الخبر

علّقت جنية ضنت بنائلها   من نسوة زانهن الدل والخفر

قد كنت أحسب في تَيْم مصانعة   وفيهم عاقلاً بعد الذي ئتمروا

(١) ما بقي من العيدان المتفرقة والكلأ المأكول وغيره (٢) حنث .

(٣) أربعة .

تعرض التيم لي عمداً لتهجوني كما تعرض لاست الخارئ الحجر

ومما تجد فيه تساوقاً في المعاني يخرج عن حد الطفرة والاقتضاب قوله في قصيدته العظيمة التي يبدؤها بقوله :

حي الهدَملة من ذات المواعيس فالحنو أصبح قفراً غير مأنوس

وفيها بعد سبعة أبيات صرفها بالغزل :

فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا ما بُعدُ يبرين من باب الفراديس

علّ الهوى من بعيد أن يقربه أمُّ النجوم ومر القوم بالعيس

لو قد علون سماوياً موارده من نحو دُومة خَبْتٍ قلَّ تعريسي

هل دعوة من جبال الثلج مسمعة أهل الإياد وحيّاً بالنباريس

أني اذا الشاعر المغرور حرّبني جارٌ لقبر على مروان مرموس

قد كان أشوس أبّاءً فأورثنا شغباً على الناس في أبنائه الشوس

فأنت ترى أن ليس في هذه الأبيات اقتضاب كالذي رأيته من قبل بل ان الشاعر قد أحسن المدخل إلى المديح :

ومما تنكب فيه جرير طريقة الجاهليين في افتتاح القصيد بالغزل قوله في هجاء الفرزدق وقومه :

لقد سرني ألاّ تعد مجاشع من الفخر إلا عقرناب بصوأر

أنابُك أم قوم تفض سيوفهم على الهام ثني بيضة المتجبر

وهي قصيدة طويلة .

وقوله من مديح عبد العزيز بن الوليد وفيه من القوة ما ترى :

إليك كلفنا كل يوم هجيرة صد ممعماني تلظى أعابله

على العيس تعروري الفلاة كأنها قطاً الادمى الجوني نشت ثمائله

وهي طويلة أيضاً .

وأما ما قد يخرج فيه عن وحدة البيت فيعلق بيتاً بآخر فمثل قوله :

فما مغزل ادماء تحنو لشادن كطوق الفتاة لم تشدد مفاصله

بأحسن منها يوم قالت أناظر إلى الليل بعض النيل أم أنت عاجله

ولهذا أشباه من الجاهليين المتقدمين وقد عيب عليهم ، وإن كنا لا نرى ذلك في هذا العصر الذي نعيش فيه .

وأما عدم تقيده بسبعة أبيات لإعادة القافية فنحو قوله في عمر بن عبد العزيز :

أَلِما صاحبيَّ نزر سعادا لقرب مزارها وذرا البعادا

فتوشك أن تشط بنا قذوف تكل نياطها القلص الجيادا

إليك شماتةَ الاعداء أشكو وهجراً كان أوله بعادا

فكيف إذا نأت ونأيت عنها أعزي النفس أو أزع الفؤادا

اتيح لك الظعائن من مراد ... وما خطب أتاح لنا مرادا

إليك رحلتُ ياعمر بن ليلى ... على ثقة ازورك واعتمادا

تعوّدْ صالح الأعمال إني ... رأيت المرء يلزم ما استعادا

أقول إذا أتين على قروری ... وآل البيد يطرد اطرادا

عليكم ذا الندى عمر بن ليلى ... جوادا سابقاً سبق الجيادا

فأنت ترى أنه لم يلتزم ماقرره العروضيون في البيت الثالث والتزم ما قرروه في البيت الأخير .

ومن محاسنه في تهيئة لفظ القافية والدلالة عليها مامر معك في البيت الخامس من الأبيات الماضية وقوله أيضاً :

عرفت ببرقه السوداء رسماً ... محيلاً طاب عهدك من رسوم

فليت الظاعنين هم أقاموا ... وفارق بعض ذا الأنس المقيم

تُعَطِّفُ من توابع كل هجر ... عَصِياً[1] بالجلود على عصيم

أعاذل طال ليلك لم تنامي ... ونام العاذلات ولم تنيمي

إذا مالمتني وعذرت نفسي ... فلومي مابدا لك أن تلومي

ألم أخص الفرزدق قد علمتم ... فأمسى مايكش[2] مع القروم

---

(١) العصيم : العرق ووسخ وبول بيبس على فخذ الابل . يريد هنا توالي العرق وانصبابه فوق الوجه . تعطف تلبس . (٢) يهدر

ومثلَك قد قصدت له فأمسى أخا حلم وما هو بالحليم

وفي هذه القصيدة التي يهجو بها الأخطل كثير من هذا التوشيح وقد لاحظت كيف ينحدر البيت إلى القافية انحداراً وكيف أن بعض المحسنات كانت تأتيه عفو الخاطر دون تعمد أو تكلف فمن ذلك وفيه الجناس :

وما زال معقولاً عقال عن الذي وما زال محبوساً عن الخير حابس

ومثله :

أمن سفه الأحلام جاؤوا بقردهم إليّ وما قرد لقرم يصاوله

ومنه وفيه الطباق :

بنينا بناءً لم تنالوا فروعه وهدّم اعلى مابنيتم أسافله

ومنه وفيه المقابلة بين أربعة :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماليا

ومنه وفيه الاستخدام :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ومنه وفيه الالتفات :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بَشامةَ سُقي البشام

ومنه وفيه رد العجز على الصدر :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً   أبشر بطول سلامة يامربع

ومثله قوله :

سقى الرمل جون مستهل ربابه   وما ذاك إلا حبُّ من حل بالرمل

ومنه وفيه الاحتراس والتتميم :

فسقاكِ حيث حللت غير فقيدة   هزج الرواح وديمة لاتقلع

ومنه وفيه الإيغال وهو ضرب من المبالغة :

بات الفرزدق عائراً (١) وكأنه   قَعْوٌ (٢) تعاوره السقاة معار

لأنه إذا كان معاراً كان أشد لاستعماله وأقل قيمة فلا يحافظ عليه .

فترى مما تقدم أن الصنعةَ في شعره لم تكن غير عفو الخاطر ، ولم يكن له فيها إلا إبداع الذوق المرهف واستحسان النفس الشاعرة .

أما مايعتمد عليه علماء القواعد فكثير ، منه قول شاعرنا ويستشهد به في الكلام على الاشتغال :

أثعلبةَ الفوارس أم رياحاً   عدلت بهم طهية والخشابا

---

(١) العائر الذي في عينه عوّار .

(٢) والقعو المحور من الحديد أو إحدى خشبتين فيهما محور تجري بينهما بكرة البئر .

وقوله لهشام ويستشهد فيه على أن أو بمعنى بل :

ما ذا ترى في عيال قد برمت بهم   لم أحص عدتهم إلا بعدّاد
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيةً   لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

وقوله ويستشهد فيه على نون الترنم :

أقلي اللّوم عاذل والعتابن   وقولي إن أصبت لقد أصابن

وقوله ويستشهد به على شذوذ كسر النون في جمع المذكر السالم : وانتقده علماء القافية بأن فيه إصرافاً :

عرفنا جعفراً وبني أبيه   وأنكرنا زعانف آخرينِ

وقوله : واستشهد به على أن أولئك يشار بها لغير العقلاء :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الأيام

وقوله واستشهد به على حذف الجار ووصل الفعل بالمفعول وهو مقصور على السماع

تمرون الديارَ ولم تعوجوا   كلامكمُ عليّ إذن حرام

وقوله ويستشهد به على جواز جمع التمييز ، وفاعل نعم الظاهر على رأي ، وهو في مديح عمر بن عبد العزيز :

تزود مثل زاد أبيك فينا   فنعم الزادُ زادُ أبيك زادا

ومثله قوله في هجاء الأخطل :

والتغلبيون بئس الفحل فحلهمُ فحلاً وامهمُ زلاء منطيق

وقوله ويستشهد به على وقوع الجملة صفة للنكرة وجواز حذف الضمير الواجب ذكره في الجملة التى تكون صفة لربطها بالموصوف :

وما أَدري أغيرهم تناء وطول الدهر أم مالٌ أصابوا

وفي كتب اللغة وقواعدها كثير من شعره المستشهد به ولا حاجة إلى استقصاء كل ماتُحدِث عنه . والديوان المطبوع بين يديك . تستبين منه على كثرة أَخطائــه معاني الشاعر التي تسمو بك إلى كل أفق ، وتطالعك بالسحر والفتنة ، وتحملك على الإعجاب والإكبار ، فهو مايزال ينتقل بك من افق لآخر ، ويحمل إليك ضروبا من المعاني ، وافانين من القول ، يصعب تحديدها فلا أقلّ من ان تقنع بما مر لأَن فيه الغَناء .

*

بعض ما يؤخذ عليه

نأخذ على جرير عيوبًا في شعره منها أنه كان (يُصرِف) في بعض الأحيان ، والإصراف هو اختلاف إعراب القوافي فتكون قافية مفتوحة وأخرى مكسورة ، ولا يرتكب هذا فحول الشعراء ، وأغلب ما يشيع على لسان الأعراب ، ولكن بعضًا من الفحول وقعوا فيه ، فقال جرير :

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرينِ
عرفنا جعفراً وبني عبيد وأنكرنا زعانف آخرينَ

ونأخذ عليه (فساد الأقسام) أحيانًا ، وذلك بأن يقسم الكلام ثم يذكر البعض ويلغي البعض الآخر ، مما لا يجب تركه كقوله في بني حنيفة :

صارت حنيفة أثلاثًا : فثلثهم من العبيد وثلث من موالينا

ومن طريف ما يروى أن هذا البيت ذكر في مجلس ، ورجل من بني حنيفة حاضر فيه ، فقيل له من أيهم أنت ؟ فقال : من الثلث الملغى ذكره .

ونأخذ عليه لحناً خطّأه فيه الكثير من العلماء وهو قوله :

ولو ولدت لعنزة جرو كلب　　لسُب بذلك الجرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام « كالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع » كما قال ابن شرف القيرواني .

ونستهجن بعض الألفاظ التي ينبو عنها الذوق الحضري ، وقد قرنت إلى أقوال فيها كثير من الملاحة والجزالة والفصاحة كقوله :

وتقول بوزع قد دببت على العصا　　هلا هزأت بغيرنا يا بوزع

(فبوزع) هذه كلمة لا تناسب المقام التي أوردت فيه ، ولعل أثر البادية يأبى إلا أن يظهر في أجمل الأغراض وأحلاها من شعر جرير .

ويؤخذ على شاعرنا سقَط وعي من القول نحو قوله :

تغشى الملائكة الكرام وفاتَنا　　والتغلبي جنازة الشيطان

وقوله :

من كل ساجي الطرف أعصل نابه　　في كل قائمة له ظلفان

وقوله :

تغلي المشاقة تبتغي دسم استها　　ومن المُشاقة عندها اكرار

ومثله قوله :

لاتحسبنَّ مراس الحرب إذ لقحت شربَ الكشيش وأكل الخبز بالصير

ومما يعد على جرير من أفن شعره قوله لبشر بن مروان :

قد كان حقك أن تقول لبارقٍ يا آل بارق فيمَ سُبَّ جرير

إذ جعل بشرَ بن مروان رسولاً ، حتى قال بشر حينما سمع ذلك : أَما وجد ابن المراغة رسولاً غيري .

ومثل ذلك قوله في يزيد(1) بن عبد الملك :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليَّ قطينا

فقال يزيد أَما والله لو قال «لو شاء ساقكم» لفعلت ذلك ولكنه جعلني شرطياً له .

وأخذ عليه في هذا البيت أنه عجز أن يفخر بقومه فتعدى إلى ذكر الخلفاء فزادت قريحته على عقله وأخذ عليه في قوله :

إني إذا الشاعر المغرور حرَّبني جار لقبرٍ على مَرّانَ مرموس

فقيل إن تميماً ليس بمرّان وإنما هو بذات عرق ، وقبر معدّ بمرّان .

ومما يعد على جرير قوله :

(1) وقيل الوليد أو هشام أو عبد الملك .

فيالك يوماً خيرُه قبل شره تغيّب واشيه وأقصر عاذله

فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شر، والأجود أن يقول: «فيالك يوماً خيره دون شره».

ويعاب عليه طرده (صائدة القلوب) ثم وصفه لها، فليته إذ كان طردها ما وصفها ولا قال:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

تجري السواك على أغرّ كأنه بَرَدٌ تحدر من متون غمام

وقيل لو أنه استعمل كلمة (المرهفات) بدل (المردفات) لكان أجود في قوله[1]:

وأوثق عند المردفات عشية لحاقاً إذا ماجرد السيف لامع

ولما قال جرير لابن لجأ:

يا تيم هل لك مثلُ أسرة حاجب أو مثل آل عتيبة بن شهاب

قال له قائل: أنت بالأمس تهجوهم والآن تفخر بهم!

وحينما هجا ابن الرقاع وقال له:

يقصِّر باع العامليّ عن العلا ولكن أ... ر العامليِّ طويلُ

قال له العاملي:

---

(١) أنظر ص ٨٧.

أأمك كانت أخبرتك بطوله أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول

فقال له جرير : بل لم أدر كيف أقول .

* * *

هذا بعض ما أخذ على جرير ، وقديماً قيل : إن لكل جواد كبوة ، ولكل سيف نبوة ، حتى رأينا كبار الشعراء تعثر وتعاب ، على قلة في الخصومة ، وفراغ في البال ، وانصراف إلى التهذيب والتنقيح .

وإذا ذكرت أن الدنيا حول جرير كانت هجاء وخصومة ، وأنه انصرف إلى نزال الشعراء الصارخين من حوله ، أكبرت منه (أن تعد معائبه) وأن يسقط في ألفاظ كان غيرها أفضل منها لو أكثر من التنقيح والصقل ، ولكنه كان يهذب شعره بمقدار ، وكان عليه أن ينتج أكثر من أن يصلح ، وكان من تمام شاعريته أن تقع على ما تنكر إلى جانب ماتحب وما تعجب به .

*

نماذج من شعره

قال يمدح الحجاج :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج ... فانظر بتوضح باكر الأحداج

هذا هوى شغف الفؤاد مبرح ... ونوى تقاذف غير ذات خلاج

إن الغراب بما كرهت لمولع ... بنوى الأحبة دائم التشحاج

ليت الغراب غداة ينعب بالنوى ... كان الغراب مقطع الأوداج

ولقد علمت بأن سرك عندنا ... بين الجوانح موثق الأشراج

ولقد رمينك حين رحن بأعين ... ينظرن من خلل الستور سواجي

وبمنطق شغف الفؤاد كأنه ... عسل يجدن به بغير مزاج

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناجي

فتعلقن ببنات نعش هارباً ... أو بالبحور وشدة الأمواج

من سد مُطَّلع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجاج

أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج

ماض على الغمرات يمضي همه ... والليل مختلف الطرائق داجي

منع الرُّشا وأراكم سبل الهدى والص نكاله عن الأدلاج

فاستوسقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجي فليس حين تناجي

يارب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج

إن العدو إذا رموك رميتهم بذرى عماية أو بهضب سواج

وإذا رأيت منافقين تخيروا سبل الضجاج أقمت كل ضجاج

داويتهم وشفيتهم من فتنة غبراء ذات دواحن وأُجاج

إني لمرتقب لما خوفتني ولفضل سيبك يابن يوسف راجي

ولقد كسرت سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج

***

وقال يمدح عبد الملك بن مروان :

أتصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

يقول العاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مراحي

يكلفني فؤادي من هواه ظعائن يجتزعن على رماح

ظعائن لم يدنّ مع النصارى ولا يدرين ماسمك انقراح

فبعض الماء ماء رباب مزن وبعض الماء من سبخ ملاح

سيكفيك العواذل أرحبيٌّ هجان اللون كالفرد اللياح

يعز على الطريق بمنكبيه كما ابترك الخليع على القداح

تعزت آم حزرة ثم قالت رأيت الورِدين ذوي لقاح
تعلل وهي ساغبة بنيها بأنفاس من الشبم القراح
سأمتـــاح البحور فجنِّبيني أذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يافداك أبي وأمي بسيب منك إنك ذو ارتياح
فإني قد رأَيت علي حقا زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر أن رددت عليّ ريشي وأثبَتّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح
وقوم قد سموت لهم فدانوا بدهم في ململمة رداح
أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شيءٌ حميت بمستباح
لكم شم الجبال من الرواسي وأعظم سيل معتلج البطاح
دعوت الملحدين أبا خبيب جماحاً هل شفيت من الجماح
فقد وجدوا الخليفة هبرزياً ألف العيص ليس من النواحي
فما شجرات عيصك في قريش بعشات الفروع ولا ضواحي
رأى الناس البصيرة فاستقاموا وبينت المراض من الصحاح

وقال يهجو الأَخطل :

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أَيتها الخيام

تنكر من معارفها ومالت دعائمها وقد بلي الثمام

تغالى فوق أجرعك الخزامى بنور واستهل بك الغمام

مقام الحي مر له ثمان إلى عشرين قد بلي المقام

أقول لصحبتي لما ارتحلنا ودمع العين منهمر سجام

أتمضون الرسوم ولا تحيا [1] كلامكم علي إذن حرام

أقيموا إنما يوم كيوم ولكن الرفيق له ذمام

بنفسي من تجنبه عزيز عليّ ومن زيارته لمام

ومن أُمسي وأُصبح لاأراه ويطرقني إذا هجع النيام

أَليس لما طلبت فدتك نفسي قضاء أَو لحاجتي انصرام

فدى نفسي لنفسك من ضجيع إذا ما التج بالسنة المنام

أَتنسى إذ تودعنا سليمى بفرع بشامة سقيَ البشام

تركتِ محلئين رأوا شفاء فحاموا ثم لم يردوا وحاموا

فلو وجِد الحمام كما وجدنا بسلمانين لاكتأب الحمام

فما وجد كوجدك يوم قلنا على ربع بناظرة السلام

(١) وفي روايته : تمرون الديار ولم تعوجوا (انظر ص ١٩٤) .

أما تجزينني ونجي نفسي ... أحاديث بذكرك واحتمام

وتكليفي المطي أوار نجم ... لليل الخامسات به أوام

ضرحن بناحصى المعزاء حتى ... تقطعت السرائح والخدام

كأنّ الرحل فوق أقب جاب ... بأجماد الشريف له مصام

عوى الشعراء بعضهم لبعض ... عليّ فقد أصابهم انتقام

كأنهم الثعالب حين تلقى ... هزبراً في العرين له انتحام

إذا أوقعت صاعقة عليهم ... رأوا أخرى تحرق فاستداموا

فمصطلم المسامع أو خصي ... وآخر عظم هامته حطام

إذا شاؤوا مددت لهم حضاراً ... وتقريباً مخالطه عزام

لقد كذب الأخيطل فيّ غرب ... إذا صاح الجوالب واعتزام

وتغلب لا وُلاة قضاء عدل ... ولا مستنكرون لأن يضاموا

لئن ليمت بنو جشم بن بكر ... بعاجنة الرحوب فقد ألاموا

شفى الوقعات ليس لتغلبي ... محار بعدهن ولا خصام

قضى لي أن أصلي خندفي ... وعضب في عواقيه السمام

إذا ماخندف زخرت وقيس ... فإن جبال عزي لا ترام

هم حدبوا علي ومكنوني ... بأفيح لا يزل به المقام

فما لمت البناة ولم يلوموا ... ذيادي حين جد بنا الزحام

إذا مدوا بحبلهم مددنا ... بحبل ما لعروته انفصام

ليربوع إذا افتخروا وعدوا ... فوارس مصدَق لهَا عظام

هم المتمرسون بكل ثغر ... وإن ركبوا إلى فزع أساموا

تفدينا النساء إذا التقينا ... ويعطي حكمنا الملك الهمام

وتغلب لا يصاهرهم كريم ... ولا إخوان من ولدوا كرام

إذا اجتمعو على سكر بفلس ... فنَصْو عند ذلك والتطام

على أست التغلبية حين تحنى ... صليبهم وفي حرها الجذام

يُشَمّون الفليس ولا يسمى ... لهم عبد المليك ولا هشام

فما عوفيت يوم تحض قيساً ... فبيض الحي واقتنص السوام

لقد ولد الأخيطل أمُّ سوء ... على باب استها صلب وشام

أهان الله جلدة حاجبيها ... وما وارى من القذر اللثام

ونسوته الخبائث مولعات ... بقس لا ينيم ولا ينام

إذا ما القس نادمهن يوماً ... على الخنزير وانكشف الفدام

بدأن شواءهن بخصيتيه ... وهن إلى جحافله قرام

كفيتك لا تقلد في رهان ... وفي الارساغ والقصب انحطام

* * *

وقال يهجو الفرزدق وينقض قصيدته التي يقول في مطلعها :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

قال جرير :

لمن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلح الأعزل

ولقد أرى بك والجديد إلى بلي موت الهوى وشفاء عين المجتلي

نظرت إليك بمثل عيني مغزل قطعت حبالتها بأعلى يليل

وإذا التمست نوالها بخلت به وإذا عرضت بودها لم تبخل

ولقد ذكرتك والمطي خواضع وكأنهن قطا فلاة مجهل

يسقين بالأدمى فراخ تنوفة زغبا حواجبهن حمر الحوصل

يا أم ناجية السلام عليكم قبل الرواح وقبل لوم العذل

وإذا غدوت فباكرتك تحية سبقت سروح الشاحجات الحجل

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

أو كنت أرهب وشك بين عاجل لقنعت أو لسألت مالم يسأل

أعددت للشعراء سماً ناقعاً فسقيت آخرهم بكأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً وبني بناءك في الحضيض الأسفل

بيتاً يحمم قينكم بفنائه دنساً مقاعده خبيث المدخل

ولقد بنيت أخس بيت يبتنى فهدمت بيتكم بمثلي يذبل

إني بنى لي في المكارم أولي ونفخت كيرك في الزمان الأول
أعيتك مأثرة القيون مجاشع فانظر لعلك تدعى من نهشل
وامدح سراة بني فُقَيْم إنهم قتلوا أَباك وثأره لم يقتل
ودع البراجم إن شربك فيهم مر عواقبه كطعم الحنظل
إني أنصببت من السماء عليكم حتى اختطفتك يافرزدق من عل
من بعد صكتي البعيث كأنه خرب تنفج من حذار الأجدل
ولقد وسمتك يابعيث بميسمي وضغاالفرزدق تحت حد الكلكل
حسب الفرزدق أن تسب مجاشع ويعد شعر مرقش ومهلهل
طلبت قيون بني قفيرة سابقاً غمر البديهة جامحاً في المسحل
إني إلى جبلي تميم معقلي ومحل بيتي في اليفاع الأطول
أَحلامنا تزن الجبال رزانة ويفوق جاهلها فعال الجهل
فارجع إلى حكمي قريش إنهم أَهل النبوة والكتاب المنزل
فاسأل إذاخرج الخدام وأُحمشت حرب تضرم كالحريق المُشْعل
والخيل تنحط بالكماة وقد رأوا لمعَ الربيئة في النّياف العيطل
أَبنو طهية يعدلون فوارسي وبنو خضاف وذاك مالم يعدل
وإذا غضبت رمى ورائي بالحصى أبناء جندلتي كخير الجندل
عمرو وسعد يافرزدق فيهم زهر النجوم وباذخات الأُجبُل

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله   مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
وافخر بضبة إن أمك منهم   ليس ابن ضبة بالمعم المخول
وقضت لنا مضر عليك بفضلنا   وقضت ربيعة بالقضاء الفيصل
إن الذي سمك السماء بنى لنا   بيتاً علاك فما له من منقل
أَبلغ بني وقبان أن حلومهم   خفت فما يزنون حبة خردل
أزري بحلمكمُ الفياش فأنتمُ   مثل الفراش غشين نار المصطلي
لو ... أمك بعد أكل خزيرها   لِتعُد مثل فوارس لم تفعل
في مزبد عمق كأن مشقَّة   خل المجازة أو طريق العنصل
تصف السيوف وغيركم يعصي بها   يابن القيون وذاك فعل الصيقل
وبرحرحان تخضخضت أصلاؤكم   وفزعتم فزع البطان العزل
خُصي الفرزدق والخصاء مذلة   يرجو مخاطرة القروم البُزَّل
هاب الخواتنُ من بنات مجاشع   مثل المحاجن أَو قرون الأُيّل
وكأن تحت ثياب خُور نسائهم   بطَّاً يصوّت في صراة الجدول
قعدت قفيرة بالفرزدق بعدما   جهد الفرزدق جهده لا يأتلي
أَلهى أَباك عن المكارم والعلا   ليُّ الكتائف وارتفاع المرجل
ولدت قفيرة قد علمتم خِبثةً   بعد المشيب وبظرها كالمنجل
بزرودَ أرقصت القعود فراشها   رعثات عُنبلها الغدفل الأُرعل

أشركت إذ حُمل الفرزدق خبثة ... حوض الحمار بليلةٍ من نبتل [1]

أبلغ هديتي الفرزدق إنها ... ثقل يزاد على حسير مثقل

أنا نقيم صغا الرؤوس ونختلي ... رأس المتوج بالحسام المقصل

* * *

وقال يتغزل ويهجو الأخطل :

بان الخليط ولو طوّعتَ ما بانا ... وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

حي المنازل إذ لا نبتغي بدلاً ... بالدار داراً ولا الجيران جيرانا

قد كنت في أَثر الاظعان ذا طرب ... مروّعاً من حذار البين محزانا

يارب مكتئب لوقد نعيت له ... باك وآخر مسرور بمنعانا

لو تعلمين الذي نلقى أويت لنا ... أو تسمعين إلى ذي العرش شكوانا

كصاحب الموج إذ مالت سفينته ... يدعو إلى الله إسراراً وإعلانا

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... بلغ تحيتنا لُقّيت حُملانا

بلغ رسائل عنا خف محملها ... على قلائص لم تحملن حيرانا

كيما نقول إذا بلغت حاجتنا ... أنت الأمين إذا مستأمن خانا

نهدي السلام لأهل الغور من ملَح ... هيهات من ملح بالغور مُهدانا

أحبب إلي بذاك الجزع منزلة ... بالطلح طلحاً وبالأعطان أعطانا

---

(١) نبتل مملوك لأم الفرزدق جرير يرميها به ، ويريد بالحمار غالبا أبا الفرزدق .

ياليت ذا القلب لاقى من يعلله | أو ساقياً فسقاه اليوم سُلوانا
أو ليتها لم تعلقنا علاقتها | ولم يكن داخل الحُبِ الذي كانا
هلا تحرجت مما تفعلين بنا | ياأطيب الناس يوم الدجن أردانا
قالت أَلمّ بنا إن كنت منطلقاً | ولا أخالك بعد اليوم تلقانا
ياطَيْبَ هل من متاع تُمتعين به | ضيفاً لكم باكراً ياطيب عجلانا
ما كنتُ أول مشتاق أخي طرب | هاجت له غدوات البين أحزانا
يا أُم عمرو جزاك الله مغفرة | ردي على فؤادي كالذي كانا
ألست أَحسن من يمشي على قدم | يا أملح الناس كل الناس إنسانا
يلقى غريمكم من غير عسرتكم | بالبذل بُخلا وبالإحسان حرمانا
لا تأمنن فإني غير آمنه | غدر الخليل إذا ما كان ألوانا
قدخنت من لم يكن يخشى خيانتكم | ما كنت أَول موثوق به خانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمني | لا أَستطيع لهذا الحب كتمانا
كاد الهوى يوم سلُمانين يقتلني | وكاد يقتلني يوماً ببيدانا
وكاد يوم لوا حواء يقتلني | لو كنت من زفرات البين قُرحانا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم | إلا على العهد حتى كان ما كانا
من حبكم فاعلمي للحب منزلة | نهوى أميركم لو كان يهوانا
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت | أَسباب دنياك من أَسباب دنيانا

يا أم عثمان إن الحب عن عرض يصبي الحليم ويبكي العين أحيانا

ضنت بمورِدة كانت لنا شرعاً تشفي صدى مستهام القلب صديانا

كيف التلاقي ولا بالقيظ محضركم منا قريب ولا مبداك مبدانا

نهوى ثرى العِرق إذ لم نلق بعدكم كالعرق عرقاً ولا السُّلان سُلانا

ما أحدث الدهر مما تعلمين لكم للحبل صرماً ولا للعهد نسيانا

أبُدِّل الليل لا تسري كواكبه أم طال حتى حسبت النجم حيرانا

يارب عائذة بالغور لو شهدت عزت عليها بدير اللُّج شكوانا

إن العيون التي في طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أر كانا

يارب غابطنا لو كان يطلبكم لاقى مُباعدةً منكم وحرمانا

أرينه الموت حتى لا حياة به قد كن دنّك قبل اليوم أديانا

طار الفؤاد مع الخود التي طرقت في النوم طيبة الأعطاف مبدانا

مثلوجة الريق بعد النوم واضعةً عن ذي مثان تمج المسك والبانا

تستاف بالعنبر الهندي قاطعة همّ الضجيع فلا دنيا كدنيانا

بتنا نرانا كأنا ما لكون الا يا ليتها صدقت بالحق رؤيانا

قالت تعزّ فإن القوم قد جعلوا دون الزيارة أبواباً وخزّانا

لما تبينتُ أن قد حيل دونهم ظلت عساكر مثل الموت تغشانا

ماذا لقيت من الأَظعان يوم قَنيً ... يتبعن مغترباً بالبين ظعّانا

أَتبعتهم مقلة إِنسانها غَرِق ... هل ما ترى تارك للعين إِنسانا

كأن أحداجهم تُحدى مقفّية ... نخلٌ بملهمَ أو نخلٌ بقُرّانا

يا أُم عثمان ما تلقي رواحلنا ... لو قست مصبحنا من حيث ممسانا

تَخدي بنا نجب دمّى مناسمها ... نقل الحزابيّ حزّاناً فحزانا

ترمي بأعينها نجداً وقد قطعت ... بين السلوطح والروحان صوانا

ياحبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا

وحبذا نفحات من يمانية ... تأتيك من قبل الريان أَحيانا

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم ... عند الصفاة التي شرقيّ حورانا

هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً ... عيش بها طالما احلولى وما لانا

أَزمان يدعونني الشيطان من غزلي ... وكن يهوينني إِذ كنت شيطانا

من ذا الذي ظل يغلي أن أزوركم ... أمسى عليه مليك الناس غضبانا

مايدّري شعراء الناس ويلهُم ... من صولة المخدر العادي بخفّانا

جهلا تمنى حدائي من ضلالتهم ... فقد حدوتهم مثنى ووحدانا

غادرتهم من حسير مات في قرن ... وآخرين نسوا التهدار خصيانا

مازال حبلي في أَعناقهم مرساً ... حتى اشتفيت وحتى دان من دانا

من يدعني منهم يبغي محاربتي ... فاستيقنَنّ أُجبه غير وسنانا

ماعض نابي قوماً أو أقول لهم إياكمُ ثم إياكم وإيانا
قل للأخيطل لم تبلغ موازنتي فاجعل لأمك أ...ر القس ميزانا
إني امرؤ لم أرد فيمن أناوئه للناس ظلماً ولا للحرب إدهانا
أحمي حماي بأعلا المجد منزلتي من خندف والذرى من قيس عيلانا
قال الخليفة والخنزير منهزم ما كنت أول عبد محلب خانا
لاقى الأخيطل بالجولان فاقرة مثل اجتداع القوافي وبر هزانا
ياخزر تغلب ماذا بال نسوتكم لايستفقن إلى الديرين تحنانا
لما رَوِين على الخنزير من سكر نادين يا أَعظم القسين جردانا
هل تتركن إلى القسين هجرتكم ومسحهم صلبهم رحمان قربانا
لن تدركوا المجد أو تشروا عباءكمُ بالخز أو تجعلوا التَّنوم ضمرانا

* * *

وقال يرثي ولده سوادة :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم من للعرين إذا فارقت أشبالي
لكن سوادة يجلو مقلتيْ لحِم بازٍ يصرصر فوق المَرقب العالي
قد كنت أَعرفه مني إذا غلقت رهن الجياد ومد الغاية الغالي
إلا تكن لك بالديرين باكية فرب باكية بالرمل معوال
كأمّ بوٍّ عجول عند معهده حنت إلى جلَد منه وأوصال

تترتع مانسيت حتى إذا ذكرت ردت همام حر الجوف مثكال
زدناعلى وجدهاوجداً وإن رجعت في القلب منهاخطوب ذات بلبال
فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي
إن الثوي بذى الزيتون فاحتسبي قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي

* * *

وقال يرثي زوجه خالدة بنت سعد :

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتع نظرة في اللحد حيث تمكن المحفار
ولّهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
أرعى النجوم وقد مضت غورية عُصب النجوم كأنهن صوار
نعم القرين وكنت علق مضنة وأرى بنعف بلية الأحجار
عمرتْ مكرمة المساك وفارقت مامسها صلَف ولا إقتار
فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك هزِمٌ أجش وديمة مدرار
هزم أجش اذا استحار ببلدة فكأنما بجوائها الأنهار
متراكم زجل يضيءُ وميضهُ كالبلق تحت بطونها الأمهار
كانت مكرمة العشير ولم يكن يخشى غوائل أم حزرة جار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار

والريح طيبة إذا استقبلتها | والعرض لا دنِس ولا خوّار
واذا سريت رأيت نارك نوّرت | وجهاً أغر يزينه الإسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا | والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما | نصب الحجيج ملبدين وغاروا
يانظرة لك يوم هاجت عبرة | من أم حزرة بالنميرة دار
تحيى الروامس ربعها فتُجده | بعد البلى وتميته الأمطار
وكأنّ منزلة لها بجلاجل | وحي الزبور تجده الأحبار
لاتكثرن إذا جعلت تلومني | لا يذهبنّ بحلمك الإكثار
كان الخليط هم الخليط فأصبحوا | متبدلين وبالديار ديار
لا يُلبث القرناء أن يتفرقوا | ليلٌ يكر عليهم ونهار
أفأم حزرة يافرزدق عبتم | غضب المليك عليكم القهار
كانت إذا هجر الحليل فراشها | خُزن الحديث وعفّت الأسرار
ليست كأمك إذ يعض بقرطها | قين وليس على القرون خمار

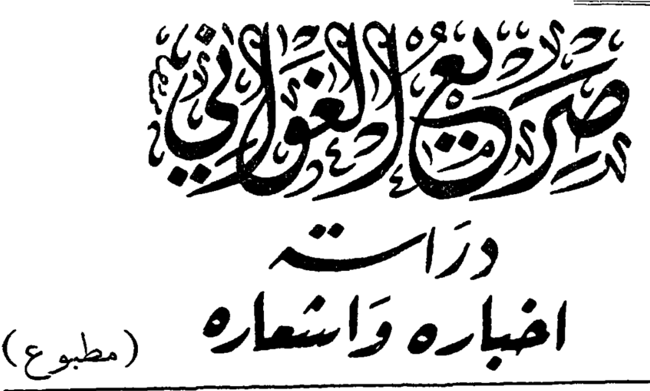
وقعت في الكتاب أخطاء معظمها ظاهر نشير لبعضها فيما يلي :

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٩	١٠	قيساً	علقمة	٩٥	١	ابنا	ادبنا
١٠	٥	الفراس	الفراسة	٩٦	٣	المصرع	المصراع
١٤	٥و٧	بأبيه	لأبيه	٩٦	٧	واليامة	من اليامة
١٥	٧	أن	أنه	٩٨	٤	جعثن	جثعن
١٥	١٤	جرير ليست جرير	بأبيات ليست	٩٩	١١	إنهم	الم ترَ أنهم
٢٩	١٠	إن	أن	١١١	١٣	لغالب	ولا عطية لغالب
٣١	٩	فكأن	فكان	١١٣	١	تشبيه	تشبيهه
٥٤	١٥	فنداهما	فغداهما	١١٧	٦	غداء	عداد
٥٦	٣	شغل	الشغل	١٢٧	٨	نعرة	نُعَرَة
٥٩	١٤	الثأى	الثأي	١٢٨	١٣	بهذا	بعد هذا
٦١	١٠	القِحّه	القِحَة	١٣٢	٦	جرير، ونحره	جرير ونحره،
٦٥	٣	ذلك	من ذلك	١٤٩	٣	لم يبلغ	لم يبلغ مبلغ
٧٤	٤و٨	فبعث	فعبث	١٦٥	٣	فُضّل فيه	فُضّلِ
٧٤	١١	بهن	بها	١٦٨	٢	قصيدة	قصيده
٧٦	٦	حطيّ	حطي	١٧٦	٩	ترارا	قرار
٧٩	٦	شواءاً	شواءٌ	١٨٥	١٣	القريب	الغريب
٨٣	١١	وصد	خزي	١٨٨	٩	ورزمت	وارزمت
٨٤	١٣	الباهلة	لباهلة	١٨٨	هامش(٢)	حنث	حنت
٨٥	٣	النابزة	لغابزه	١٨٩	١٠	مروان	مران
٨٨	٥	إلا	ألا	١٩٠	٥	قطاً	قطا

ضع في ص ٩ بين السطرين ٦و٧ هذا الشطر: ينهل ممّا من يعادي ويعل

الفهرس

للمؤلف :



دراسة

نهج البلاغة

(تحت الطبع)

قلب الشاعر

(تحت الطبع)

ومستهل الآداب وكتب مدرسية مقررة مطبوعة.